محمود درويش

# أثر الفراشة

يوميات

طبعة جديدة



رياض الريس للكتب والنشر
RIYAD EL-RAYYES BOOKS

# أثر الفراشة

محمود درويش

# أثر الفراشة

يوميات



رياض الريس للكتب والنشر
RIYAD EL-RAYYES BOOKS

# The Butterfly Effect

by Mahmoud Darwish

(A Diary)

First Published in January 2008.
Second Edition Published in January 2009.

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21- 322 - 4



الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٨

الطبعة الثانية: كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٩

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: غريتا خوري

(محترف بيروت غرافيكس)

صورة الغلاف: نادر داوود

# المحتويات

[صفحات مختارة من يوميات،
كُتبت بين صيف ٢٠٠٦ وصيف ٢٠٠٧]

# البنتُ / الصرخة

على شاطىء البحر بنتٌ. وللبنت أَهلٌ
وللأهل بيتٌ. وللبيت نافذتان وبابْ...
وفي البحر بارِجَةٌ تتسَلَّى
بصَيْدِ المُشَاة على شاطىء البحر:
أَربعَةٌ، خَمْسَةٌ، سَبْعَةٌ
يسقطون على الرمل، والبنتُ تنجو قليلاً
لأنَّ يداً من ضبابْ
يداً ما إلٰهيّةً أَسْعَفَتْها، فنادتْ: أَبي
يا أَبي! قُمْ لنرجع، فالبحر ليس لأمثالنا!
لم يُجِبْها أبوها المُسَجَّى على ظلِّهِ

في مهبِّ الغيابْ

دَمٌ في النخيل، دَمٌ في السحابْ

يطير بها الصوتُ أَعلى وأَبعدَ مِنْ
شاطىء البحر. تصرخ في ليل برّية،
لا صدى للصدى.
فتصير هي الصرخةَ الأبديَّةَ في خَبَرٍ
عاجلٍ، لم يعد خبراً عاجلاً
عندما
عادت الطائرات لتقصف بيتاً بنافذتين وبابْ!

# ذباب أخضر

أَلمشهد هُوَ هُوَ. صيفٌ وعَرَقٌ، وخيال يعجز عن رؤية ما وراء الأفق. واليوم أفضلُ من الغد. لكنَّ القتلى هم الذين يتجدّدون. يُولَدُون كُلَّ يوم. وحين يحاولون النوم يأخذهم القتلُ من نعاسهم إلى نومٍ بلا أحلام. لا قيمة للعدد. ولا أَحد يطلب عوناً من أحد. أصوات تبحث عن كلمات في البرية، فيعود الصدى واضحاً جارحاً: لا أَحد. لكن ثمَّةَ من يقول: «من حق القاتل أن يدافع عن غريزة

القتل». أمَّا القتلى فيقولون متأخرين: «من حق الضحية أن تدافع عن حَقِّها في الصراخ». يعلو الأذان صاعداً من وقت الصلاة إلى جنازات متشابهة: توابيتُ مرفوعةٌ على عجل، تدفن على عجل... إذ لا وقت لإكمال الطقوس، فإنَّ قتلى آخرين قادمون، مسرعين، من غاراتٍ أخرى. قادمون فُرَادى أو جماعات... أو عائلةً واحدةً لا تترك وراءها أيتاماً وثكالى. السماء رماديَّةٌ رصاصية، والبحر رماديٌّ أزرق. أَمَّا لون الدم فقد حَجَبَتْهُ عن الكاميرا أسرابٌ من ذباب أَخضر!

# كقصيدةٍ نثريّة

صيفٌ خريفيٌّ على التلال كقصيدةٍ نثرية. النسيم إيقاعٌ خفيف أحسُّ به ولا أَسمعه في تواضُع الشجيرات. والعشب المائل إلى الأصفرار صُوَرٌ تتقشَّفُ، وتُغري البلاغة بالتشَبُّه بأَفعالها الماكرة. لا احتفاء على هذه الشِعاب إلَّا بالمُتاح من نشاط الدُوريّ، نشاطٍ يراوح بين معنىً وعَبَث. والطبيعة جسدٌ يتخفَّف من البهرجة والزينة، ريثما ينضج التين والعنب والرُمَّان ونسيانُ شهواتٍ يوقظها المطر. «لولا حاجتي الغامضة إلى الشعر لَمَا كنت في حاجة

إلىٰ شيء» - يقول الشاعر الذي خَفَّتْ حماسته فقلَّت أخطاؤه. ويمشي لأن الأطباء نصحوه بالمشي بلا هدف، لتمرين القلب على لامبالاةٍ ما ضروريةٍ للعافية. وإذا هجس، فليس بأكثر من خاطرة مجانيّة. الصيف لا يصلح للإنشاد إلّا في ما ندر. الصيف قصيدةٌ نثريَّةٌ لا تكترث بالنسور المحلِّقة في الأعالي.

# ليتني حجر

لا أَحنُّ إلى أيٍّ شيءٍ
فلا أمسِ يمضي، ولا الغَدُ يأتي
ولا حاضري يتقدَّمُ أَو يتراجَعُ
لا شيء يحدث لي!
ليتني حَجَرٌ ــ قُلْتُ ــ يا ليتني
حَجَرٌ ما ليصقُلَني الماءُ
أَخضرٌ أَصفَرٌ... أُوضَعُ في حُجْرَةٍ
مثلَ مَنْحُوتةٍ، أَو تمارينَ في النحت...
أو مادَّةً لانبثاق الضروريِّ
من عبث اللاضروريّ...

يا ليتني حجرٌ
كي أَحنَّ إلى أيٍّ شيء!

# أَبعد من التماهي

أَجلسُ أمام التلفزيون، إذ ليس في وسعي أن أفعل شيئاً آخر. هناك، أمام التلفزيون، أَعثُرُ على عواطفي، وأَرى ما يحدث بي ولي. ألدخان يتصاعد مني. وأَمدُّ يدي المقطوعةَ لأمسك بأعضائي المبعثرة من جسومٍ عديدة، فلا أَجدها ولا أهرب منها من فرط جاذبيّة الألم. أَنا المحاصَرُ من البرِّ والجوِّ والبحر واللغة. أقلعتْ آخرُ طائرةٍ من مطار بيروت ووضعتني أمام التلفزيون، لأشاهد بقيَّة موتي مع ملايين المشاهدين، لا شيء يثبت أني

موجود حين أفكِّر مع ديكارت، بل حين ينهض مني القربان، الآن، في لبنان. أَدخُلُ في التلفزيون، أنا والوحش. أَعلم أنَّ الوحش أقوى مني في صراع الطائرة مع الطائر. ولكنني أَدمنت، ربما أكثر مما ينبغي، بُطُولَةَ المجاز: التهمني الوحشُ ولم يهضمني. وخرجتُ سالماً أكثر من مرة. كانت روحي التي طارت شَعَاعاً مني ومن بطن الوحش تسكن جسداً آخر أَخفَّ وأَقوى، لكنني لا أعرف أين أنا الآن: أمام التلفزيون، أم في التلفزيون. أما القلب فإني أراه يتدحرج، ككوز صنوبر، من جبل لبناني إلى رَفَح!

# العدوّ

كنتُ هناك قبل شهر. كنتُ هناك قبل سنة. وكنت هناك دائماً كأني لم أَكن إلَّا هناك. وفي عام ٨٢ من القرن الماضي حدث لنا شيء مما يحدث لنا الآن. حُوصرنا وقُتِلْنا وقاومنا ما يُعْرَضُ علينا من جهنم. القتلى / الشهداء لا يتشابهون. لكلٍّ واحد منهم قوامٌ خاصْ، وملامح خاصة، وعينان واسمٌ وعمر مختلف. لكن القتلة هم الذين يتشابهون. فَهُم واحدٌ مُوزَّعٌ على أَجهزة معدنية. يضغط على أزرار إلكترونية. يقتل ويختفي. يرانا ولا

نـراه، لا لأنـه شـبـح، بـل لأنـه قـنـاع فـولاذيّ لـفـكـرة ... لا مـلامـح لـه ولا عـينان ولا عـمـر ولا اسـم. هـو ... هـو الـذي اخـتـار أن يـكـون لـه اسم وحيد: العَدُوّ!

# نيرون

ماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفرّج على حريق لبنان؟ عيناه زائغتان من النشوة، ويمشي كالراقص في حفلة عُرْسٍ: هذا الجنون، جنوني، سيِّدُ الحكمة. فلتُشْعلوا النار في كل شيء خارج طاعتي. وعلى الأطفال أَن يتأدَّبوا ويتهذَّبوا ويكُفُّوا عن الصراخ بحضرة أنغامي!

وماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفرَّج على حريق العراق؟ يُسْعِدُهُ أن يُوقِظَ في تاريخ الغابات ذاكرة تحفظ اسمه عَدُوّاً لحمورابي

وجلجامش وأَبي نواس: شريعتي هي أُمُّ الشرائع. وعشبة الخلود تنبت في مزرعتي. والشعر؟.. ما معنى هذه الكلمة؟

وماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفرَّج على حريق فلسطين؟ يُبهجة أن يدرج اسمه في قائمة الأنبياء نبيّاً لم يؤمن به أَحد من قبل ... نبيّاً للقتل كلَّفه الله بتصحيح الأخطاء التي لا حصر لها في الكتب السماوية: أنا أَيضاً كليمُ الله!

وماذا يدور في بال نيرون وهو يتفرَّج على حريق العالم؟ «أنا صاحب القيامة». ثم يطلب من الكاميرا وقف التصوير، لأنه لا يريد لأحد أن يرى النار المشتعلة في أَصابعه، عند نهاية هذا الفيلم الأميركي الطويل!

## الغابة

لا أسمعُ صوتي في الغابة، حتى لو
خَلَتِ الغابةُ من جوع الوحشِ ...
وعاد الجيشُ المهزومُ أو الظافرُ، لا فرق،
على أشلاء الموتى المجهولين إلى الثكَنات
أو العرشِ !
ولا أسمع صوتي في الغابة، حتى لو
حملته الريحُ إليّ، وقال لي:
«هذا صوتُكَ» ... لا أَسمعُهُ

لا أسمع صوتي في الغابة، حتى لو

وقف الذئب على قدمين وصفَّق لي:
«إني أسمع صوتك، فلتَأْمُرْني! |»
فأقول: الغابةُ ليست في الغابة
يا أَبتي الذئبَ ويا ابني! |

لا أَسمع صوتي إلّا إنْ
خَلَتِ الغابةُ مني
وخلوتُ أنا من صمت الغابة!

# حَمام

رفٌّ من الحمام ينقشع فجأة من خلل الدخان. يلمع كبارقة سِلْمٍ سماوية. يحلّق بين الرماديّ وفُتات الأزرق على مدينة من ركام. ويذكّرنا بأن الجمال ما زال موجوداً، وبأن اللا موجود لا يعبث بنا تماماً إذ يَعِدُنا، أو نظنُّ أنه يعدنا بتجلّي اختلافه عن العدم. في الحرب لا يشعر أَحد منا بأنه مات إذا أَحسَّ بالألم. الموت يسبق الألم. والألم هو النعمة الوحيدة في الحرب. ينتقل من حيّ إلى حيّ مع وقف التنفيذ. وإذا حالف الحظّ أحداً

نسيَ مشاريعه البعيدة، وانتظر اللا موجود وقد وُجِدَ مُحَلِّقاً في رفِّ حمام. أرى في سماء لبنان كثيراً من الحمام العابث بدخان يتصاعد من جهة العدم!

# البيتُ قتيلاً

بدقيقة واحدة، تنتهي حياةُ بيتٍ كاملة. البيتُ قتيلاً هو أيضاً قَتْلٌ جماعيّ حتى لو خلا من سُكّانه. مقبرة جماعية للموادّ الأولية المُعَدَّةِ لبناء مبنى للمعنى، أو قصيدةٍ غير ذات شأن في زمن الحرب. البيت قتيلاً هو بَتْرُ الأشياء عن علاقاتها وعن أسماء المشاعر. وحاجةُ التراجيديا إلى تصويب البلاغة نحو التَّبَصُّر في حياة الشيء. في كل شيء كائنٌ يتوجَّع... ذكرى أَصابع وذكرى رائحة وذكرى صورة. والبيوت تُقْتَلُ

كما يُقْتَلُ سكانها. وتُقْتَلُ ذاكرةُ الأشياء: الحجر والخشب والزجاج والحديد والإسمنتُ تتناثر أشلاء كالكائنات. والقطن والحرير والكتّان والدفاتر والكتب تتمزّق كالكلمات التي لم يتسَنَّ لأصحابها أن يقولوها. وتتكسَّر الصحون والملاعق والألعاب والأسطوانات والحنفيّات والأنابيب ومقابض الأبواب والثلَّاجة والغسَّالة والمزهريات ومرطبانات الزيتون والمخللات والمعلبات كما انكسر أصحابها. ويُسحق الأبْيَضَان الملح والسُّكَّر، والبهارات وعلب الكبريت وأقراص الدواء وحبوب منع الحمل والعقاقير المُنَشطة وجدائل الثوم والبصل والبندورة والبامية المُجَفَّفة والأرُزُّ والعدس، كما يحدث لأصحابها. وتتمزَّق عقود الإيجار ووثيقة الزواج وشهادة الميلاد وفاتورة الماء والكهرباء وبطاقات الهوية وجوازات السفر والرسائل الغرامية، كما تتمزّق قلوب أَصحابها. وتتطاير الصُّوَر وفُرَشُ الأسنان وأمشاط الشَّعْر وأدوات الزينة والأحذية والثياب الداخلية والشراشف والمناشف كأسرار عائلية

تُنْشَرُ على الملأ والخراب. كل هذه الأشياء ذاكرةُ الناس التي أُفْرِغَتْ من الأشياء، وذاكرة الأشياء التي أُفْرِغَتْ من الناس... تنتهي بدقيقة واحدة. أشياؤنا تموت مثلنا. لكنها لا تُدْفَنْ معنا!

# مَكْرُ المجاز

مجازاً أقول: انتصرتُ
مجازاً أقول: خسرتُ ...
ويمتدُّ وادٍ سحيقٌ أمامي
وأَمتدُّ في ما تبقَّى من السنديانْ ...
وثَمَّة زيتونتان
تَلُمَّانني من جهاتٍ ثلاثٍ
ويحملني طائرانْ
إلى الجهة الخاليةْ
من الأَوْج والهاويةْ
لئلَّا أقول: انتصرتُ
لئلَّا أقول: خسرتُ الرهانْ!

# ألبعوضة

أَلبعوضةُ، ولا أَعرف اسم مُذَكَّرها، أشَدُّ فَتْكاً من النميمة. لا تكتفي بمصّ الدمِ، بل تزجّ بك في معركة عَبَثيّة. ولا تزور إلّا في الظلام كَحُمَّى المتنبي. تَطِنُّ وَتَزُنُّ كطائرةٍ حربية لا تسمعها إلّا بعد إصابة الهدف. دَمُكَ هو الهدف. تُشْعل الضوء لتراها فتختفي في رُكْنٍ ما من الغرفة والوساوس، ثم تقف على الحائط ... آمنةً مسالمةً كالمستسلمة. تحاول أن تقتلها بفردة حذائك، فتراوغك وتفلت وتعاود الظهور الشامت. تشتمها

بصوت عال فلا تكترث. تفاوضها على هدنة بصوت وُدِّي: نامي لأنام! تظنُّ أنك أَقْنَعْتَها فتطفيء النور وتنام. لكنها وقد امتصت المزيد من دمك تعاود الطنين إنذاراً بغارة جديدة. وتدفعك إلى معركة جانبيّة مع الأَرَق. تشعل الضوء ثانية وتقاومهما، هي والأرق، بالقراءة. لكن البعوضة تحطُّ على الصفحة التي تقرؤها، فتفرح قائلاً في سرّك: لقد وَقَعَتْ في الفخّ. وتطوي الكتاب عليها بقُوَّة: قَتَلْتُها... قتلتُها! وحين تفتح الكتاب لتزهو بانتصارك، لا تجد البعوضة ولا الكلمات. كتابك أَبيض!. البعوضة، ولا أعرف اسم مُذَكَّرها، ليست استعارة ولا كنايةً ولا تورية. إنها حشرة تحبُّ دمك وتَشُمُّه عن بُعْد عشرين ميلاً. ولا سبيل لك لمساومتها على هدنة غير وسيلة واحدة: أن تغيِّر فصيلةَ دمك!

# نسر على ارتفاع منخفض

قال المسافرُ في القصيدة

للمسافر في القصيدة:

كم تبقَّى من طريقكَ؟

ــ كُلُّهُ

ــ فاذهبْ إذاً، واذهبْ

كأنَّكَ قد وصلتَ ... ولم تصلْ

ــ لولا الجهات، لكان قلبي هُدْهُداً

ــ لو كان قلبُكَ هدهداً لتبعتُهُ

ــ مَنْ أَنتَ؟ ما اسمُكَ؟

ــ لا اسمَ لي في رحلتي

ـ أأراك ثانيةً؟

ـ نعم. في قِمَّتَيْ جَبَـلَيْن بينهما

صدىً عالٍ وهاويةٌ ... أراكَ

ـ وكيف نقفز فوق هاويةٍ

ولسنا طائِرَيْنِ؟

ـ إذنْ، نغنِّي:

مَنْ يرانا لا نراهُ

ومَنْ نراهُ لا يرانا

ـ ثم ماذا؟

ـ لا نغنِّي

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم تسألني وأسألُ:

كم تبقَّى من طريقكَ؟

ـ كُلُّهُ

ـ هل كُلُّهُ يكفي لكي يَصِلَ المُسَافِرُ؟

ـ لا. ولكني أرى نسراً خرافياً

يحلِّقُ فوقنا... وعلى ارتفاعٍ منخفضْ!

# واجب شخصي

هتفوا له: يا بطل! واستعرضوهُ في الساحات. نَطَّتْ عليه قلوب الفتيات الواقفات على الشرفات، ورششنه بالأَرُزِّ والزنبق. وخاطبه الشعراء المتمردون على القافية بقافية ضروريّة لتهييج اللغة: «يا بَطَلْ! أنتَ الأَمَلْ». وهو، هو المرفوع على الأكتاف رايةً منتصرة، كاد أن يفقد اسمه في سيل الأوصاف. خجول كعروس في حفلة زفافها. «لم أفعل شيئاً. قمت بواجبي الشخصي». في صباح

اليوم التالي، وجد نفسه وحيداً يستذكر ماضياً بعيداً يلوِّح له بيد مبتورة الأصابع «يا بطل! أنت الأمل». يتطلع حوله فلا يرى أحداً من المحتفلين به البارحة. يجلس في جُحرْ العزلة. ينقِّبُ في جسده عن آثار البطولة. ينتزع الشظايا ويجمعها في صحنِ تَنَك، ولا يتألم... «ليس الوجع هنا. الوجع في موضع آخر. لكن من يستمع الآن إلى استغاثة القلب»؟ أحسَّ بالجوع. تفقَّد معلبات السردين والفول فوجدها منتهية الصلاحية. ابتسم وغمغم: «للبطولة أيضاً تاريخ انتهاء صلاحية». وأدرك أنه قام بواجبه الوطنيّ!

# عَدُوّ مشترك

تمضي الحرب إلى جهة القيلولة. ويمضي المحاربون إلى صديقاتهم متعبين وخائفين على كلامهم من سوء التفسير: انتصرنا لأننا لم نمت. وانتصر الأعداء لأنهم لم يموتوا. أمَّا الهزيمة فإنها لفظة يتيمة. لكنَّ المحارب الفرد ليس جندياً بحضرة من يُحبُّ: لولا عيناك المُصَوَّبتان إلى قلبي لاخترقتْ رصاصةٌ قلبي! أو: لولا حرصي على ألَّا أُقْتَلَ لما قتلتُ أحداً! أو: خفت عليك من موتي، فنجوت لأطمئنك عليَّ. أو: البطولة

كلمة لا نستخدمها إلّا على المقابر. أو: في المعركة لم أفكِّر بالنصر، بل فكرت بالسلامة وبالنمش على ظهرك. أو: ما أَضيق الفرق بين السلامة والسلام وغرفة نومك. أو: حين عطشتُ طلبتُ الماء من عدوي ولم يسمعني، فنطقت باسمك وارتويت... ألمحاربون من الجانبين يقولون كلاماً متشابهاً بحضرة من يُحِبُّون. أمَّا القتلى من الجانبين، فلا يدركون إلّا متأخرين، أن لهم عدواً مشتركاً هو: الموت. فما معنى ذلك، ما معنى ذلك؟

# بقيَّةُ حياة

إذا قِيل لي: ستموتُ هنا في المساء
فماذا ستفعل في ما تبقَّى من الوقتِ؟
ـ أَنظُرُ في ساعة اليدِ
أَشربُ كأس عصيرٍ
وأَقْضُمُ تُفَّاحَةً
وأُطيلُ التأمُّلَ في نَمْلَةٍ وَجَدَتْ رِزْقها...
ثُمَّ أَنظر في ساعة اليدِ:
ما زال ثَمَّةَ وقتٌ لأَحلق ذقني
وأَغطسَ في الماء | أَهجسُ:
«لا بُدَّ من زينةٍ للكتابةِ

فليكُنِ الثوبُ أزرقَ»....
أَجلسُ حتى الظهيرة، حيّـاً، إلى مكتبي
لا أرى أَثَرَ اللون في الكلمات
بياضٌ، بياضٌ، بياضٌ ...

أُعِدُّ غدائي الأخير
أَصبُّ النبيذ بكأسين: لي
ولـمَنْ سوف يأتي بلا موعدٍ.
ثُمَّ آخُذُ قَيْـلُولةً بين حُلْمينِ
لكنَّ صوتَ شخيري سيُـوقظُني ...
ثُمَّ أنظرُ في ساعة اليدِ:
ما زال ثَمَّةَ وقتٌ لأَقْرأَ
أَقرأُ فصلاً لدانتي ونصْفَ مُعَلَّقَةٍ
وأرى كيف تذهب مني حياتي
إلى الآخرين، ولا أَتساءل عَمَّنْ
سيملأُ نُقْصَانَها
ــ هكذا؟
ــ هكذا،

ثُمَّ ماذا؟

ــ أُمَشِّطُ شَعْرِي

وأَرمي القصيدةَ: هذي القصيدةَ

في سلَّة المهملات

وأَلبسُ أحدث قُمْصانِ إيطاليا

وأُشيِّعُ نفسي بحاشِيَـةٍ من كَمَنْجات إِسبانيا

ثُمَّ

أمشي

إلى المقبرةْ!

# لون أصفر

أزهارٌ صفراء توسِّع ضوء الغرفة. تنظر إليَّ أكثر مما أنظر إليها. هي أولى رسائل الربيع. أَهْدَتْنِيها سيِّدةٌ لا تشغلها الحرب عن قراءة ما تبقَّى لنا من طبيعة متقشفة. أغبطها على التركيز الذي يحملها إلى ما هو أبعد من حياتنا المهلهلة ... أَغبطها على تطريز الوقت بإبرة وخيط أَصفر مقطوع من الشمس غير المحتلة. أُحدِّق إلى الأزهار الصفراء، وأُحسّ بأنها تضيئني وتذيب عتمتي، فأخفّ

وأشفّ وأجاريها في تبادل الشفافية. ويُغويني مجاز التأويل: الأصفر هو لونُ الصوت المبحوح الذي تسمعه الحاسة السادسة. صوت مُحَايِدُ النَّبْرِ، صوت عباد الشمس الذي لا يغيِّرُ دِينَه. وإذا كان للغيرة ـ لونِهِ من فائدة، فهي أن ننظر إلى ما حولنا بفروسية الخاسر، وأن نتعلم التركيز على تصحيح أخطائنا في مسابقاتٍ شريفة!

# ليت الفتى شجرة

ألشجرة أخت الشجرة، أو جارتها الطيّبة. الكبيرة تحنو على الصغيرة، وتُمدُّها بما ينقصها من ظلّ. والطويلة تحنو على القصيرة، وترسل إليها طائراً يؤنسها في الليل. لا شجرة تسطو على ثمرة شجرة أخرى، وإن كانت عاقراً لا تسخر منها. ولم تقتل شجرةٌ شجرةً ولم تقلِّد حَطّاباً. حين صارت زورقاً تعلَّمت السباحة. وحين صارت باباً واصلت المحافظة على الأسرار. وحين صارت مقعداً لم تنسَ سماءها السابقة.

وحين صارت طاولة عَلَّمت الشاعر أن لا يكون حطاباً. الشجرة مَغْفَرةٌ وسَهَرٌ. لا تنام ولا تحلم. لكنها تُؤْتَمَنُ على أسرار الحالمين، تقف على ساقها في الليل والنهار. تقف احتراماً للعابرين وللسماء. الشجرة صلاة واقفة. تبتهل إلى فوق. وحين تنحني قليلاً للعاصفة، تنحني بجلال راهبة وتتطلع إلى فوق ... إلى فوق. وقديماً قال الشاعر: «ليت الفتى حجر». وليته قال: ليت الفتى شجرة!

# وصلنا متأخرين

في مرحلة ما من هشاشةٍ نُسَمِّيها نضجاً، لا نكون متفائلين ولا متشائمين. أَقلعنا عن الشغف والحنين وعن تسمية الأشياء بأضدادها، من فرط ما التبس علينا الأمر بين الشكل والجوهر، ودرَّبنا الشعورَ على التفكير الهادىء قبل البوح. للحكمة أسلوبُ الطبيب في النظر إلى الجرح. وإذ ننظر إلى الوراء لنعرف أَين نحن منَّا ومن الحقيقة، نسأل: كم ارتكبنا من الأخطاء؟ وهل وصلنا إلى الحكمة

متأخرين. لسنا متأكدين من صواب الريح، فماذا ينفعنا أن نصل إلى أيّ شيء متآخرين، حتى لو كان هنالك من ينتظرنا على سفح الجبل، ويدعونا إلى صلاة الشكر لأننا وصلنا سالمين ...
لا متفائلين ولا متشائمين، لكن متأخرين!

# غريبان

يرنو إلى أَعلى
فيبصر نجمةً
ترنو إليهْ!

يرنو إلى الوادي
فيبصر قبرَهُ
يرنو إليهْ

يرنو إلى امرأةٍ،
تعذِّبُهُ وتعجبُهُ

ولا ترنو إليه

يرنو إلى مرآتِهِ
فيرى غريباً مثله
يرنو إليهْ!

## ماذا ... لماذا كُلُّ هذا؟

يُسَلِّي نفسه، وهو يمشي وحيداً، بحديث قصير مع نفسه. كلمات لا تعني شيئاً، ولا تريد أن تعني شيئاً: «ماذا؟ لماذا كل هذا؟» لم يقصد أن يتذمر أو يسأل، أو يحكَّ اللفظة باللفظة لتقدح إيقاعا يساعده على المشي بخفَّةِ شاب. لكن ذلك ما حدث. كلما كرَّر: ماذا ... لماذا كل هذا؟ أحسَّ بأنه في صحبة صديق يعاونه على حمل الطريق. نظر إليه المارة بلا مبالاة. لم يظن أَحد أنه

مجنون. ظنوه شاعراً حالماً هائماً يتلقّى وحياً مفاجئاً من شيطان. أما هو، فلم يَتَّهم نفسه بما يسيء إليها. ولا يدري لماذا فكَّر بجنكيزخان. ربما لأنه رأى حصاناً بلا سرج يسبح في الهواء، فوق بناية مُهَدَّمة في بطن الوادي. واصل المشي على إيقاع واحد: «ماذا ... لماذا كل هذا؟» وقبل أن يصل إلى نهاية الطريق الذي يسير عليه كل مساء، رأى عجوزاً ينتحي شجرة أكاليپتوس، يسند على جذعها عصاه، يفك أزرار سرواله بيد مرتجفة، ويبول وهو يقول: ماذا ... لماذا كل هذا؟. لم تكتف الفتيات الطالعات من الوادي بالضحك على العجوز، بل رمينه بحبَّات فستق أَخضر!

# موهبة الأَمل

كلما فكَّر بالأمل أنهكه التعب والملل، واخترع سراباً، وقال: بأيّ ميزانٍ أَزِنُ سرابي؟ بحث في أدراجه عمَّن كانه قبل هذا السؤال، فلم يعثر على مُسَوَّداتٍ كان فيها القلبُ سريعَ العطب والطيش. ولم يعثر على وثيقة تثبت أنه وقف تحت المطر بلا سبب. وكلما فكَّر بالأمل اتسعت المسافة بين جسد لم يعد خفيفاً وقلبٍ أصيب بالحكمة. ولم يكرِّر السؤال: مَنْ أنا؟ من فرط ما هو

مُجَافٍ لرائحة الزنبق وموسيقى الجيران العالية. فتح النافذة على ما تبقَّى من أفق، فرأى قطّتين تمازحان جَزْواً على الشارع الضيِّق، وحمامةً تبني عشاً في مدخنة. وقال: ليس الأمل نقيض اليأس، ربما هو الإيمان الناجم عن لا مبالاة آلهةٍ بنا ... تركتنا نعتمد على مواهبنا الخاصة في تفسير الضباب. وقال: ليس الأمل مادَّةً ولا فكرة. إنه موهبة. تناول قرصاً مضاداً لارتفاع ضغط الدم. ونسي سؤال الأمل ... وأَحسَّ بفرح ما ... غامض المصدر!

## ما أنا إلّا هو

بعيداً، وراء خطاه
ذئابٌ تَعَضُّ شعاع القمرْ

بعيداً، أمام خطاه
نجوم تضيء أَعالي الشجرْ

وفي القرب منه
دمٌ نازفٌ من عروق الحجرْ

لذلك، يمشي ويمشي ويمشي

إلى أن يذوب تماماً
ويشربه الظلّ عند نهاية هذا السفرْ

وما أنا إلّا هُوَ
وما هو إلّا أنا
في اختلاف الصَّوَرْ!

# لم أحلم

متنبّهاً إلى ما يتساقط من أَحلامي، أَمنع عطشي من الإسراف في طلب الماء من السراب. أَعترفُ بأني تعبت من طول الحلم الذي يعيدني إلى أَوَّله وإلى آخري، دون أن نلتقي في أيِّ صباح. «سأصنع أحلامي من كفاف يومي لأتجنَّب الخيبة». فليس الحلم أن ترى ما لا يُرى، على وتيرة المُشْتَهى، بل هو أن لا تعلم أنك تحلم. لكن، عليك أن تعرف كيف تصحو. فاليقظة هي نهوض الواقعي من الخياليّ مُنَقَّحاً،

وعودةُ الشِعْر سالماً من سماءِ لُغَةٍ متعالية
إلى أرض لا تشبه صورتها. هل في
وسعي أن أختار أحلامي، لئلا أحلم
بما لا يتحقّق، كأن أكون شخصاً آخر ...
يحلم بأنه يرى الفرق بين حيّ يرى
نفسه ميتاً، وبين ميت يرى نفسه حيّاً؟
ها أَنذا حيّ، وحين لا أحلم أَقول:
«لم أحلم، فلم أَخسر شيئاً»!

# جار الصغيرات الجميلات

يمشي على الشارع ذاته، في الموعد ذاته، مكتفياً بما يمنحه المساء من تذوّق متمهّل لطعم الهواء. يأسف كلما لاحظ النقصان المتزايد في أشجار الزيتون، حيث تزداد البنايات ارتفاعاً كآلامنا وتُقَلِّص كمية الفضاء. لكن الفتيات الصغيرات يكثرن ويكبرن وينضجن دون أن يخشين الزمن المتربِّص بهن عند نهاية الشارع النازل إلى الوادي، ينظر إليهن بلا اشتهاء. وينظرن إليه بفضول، ويقلن له: مساء الخير يا عم!. يُحِبُّهنَّ

بلا غصَّةٍ سفرجليَّة، ويحتفي بجمال نضارتهنَّ وبنضارة آمالهنّ، كما يحتفي بموسيقى، وبلوحة مائية، وبطائر أزرق الذيل. هُنَّ يستعجلن الزمن ليصبغن أظافرهن بالأحمر المتحرّش بثيران خفيّة، ولينتعلن الكعب العالي لكسر ثمار الجوز وإيقاظ النائم. وهو يستمهل الزمن ليطيل متعة المرور بينهن جاراً لجمال مستقلّ. ولا بأس في أن يتذكر أنه عندما كان أَصغر كان يغبط نفسه كلما مشى برفقة مُهْرَةٍ على طرق أخرى: «هل كُلُّ هذا الكليّ لي؟» ثم يواصل المشي على الشارع وحيداً. يَعُدُّ على أصابع يديه ما تبقَّى من أشجار الزيتون، ويفرح بغزلان تتقافز حوله بحياد متبادل. لا يغبط نفسه على شيء!.. ولا يحسد غيره!

# كم البعيد بعيد

«كم البعيدُ بعيدٌ»؟
كم هي السُبُلُ؟
نمشي
ونمشي إلى المعنى
ولا نَصِلُ ...

هُوَ السرابُ
دليلُ الحائرين
إلى الماء البعيد
هو البُطْلَان ... والبَطَلُ

نمشي، وتنضج في الصحراءِ
حكمتُنا
ولا نقول: لأنّ التِيهَ يَكْتملُ

لكن حكمتنا تحتاجُ أُغنيةً
خفيفةَ الوزن،
كي لا يتعب الأَمَلُ

«كم البعيد بعيدٌ»؟
كم هِيَ السُبُـلُ؟

# يرى نفسه غائباً

أنا هنا منذ عشر سنوات. وفي هذا المساء، أجلس في الحديقة الصغيرة على كرسيّ من البلاستيك، وأنظر إلى المكان منتشياً بالحجر الأحمر. أَعُدُّ الدرجات المؤدية إلى غرفتي على الطابق الثاني. إحدى عشرة درجة. إلى اليمين شجرةُ تين كبيرة تُظَلِّل شجيرات خوخ. وإلى اليسار كنيسةٌ لوثريَّة. وعلى جانب الدرج الحجري بئر مهجورة ودلو صدىء وأزهار غير مرويَّة تمتصّ حبيبات من حليب أوَّل الليل. أنا هنا، مع أربعين شخصاً، لمشاهدة مسرحية قليلة

الكلام عن منع التجوُّل، ينتشر أبطالها المنسيّون في الحديقة وعلى الدرج والشرفة الواسعة. مسرحية مرتجلة، أو قيد التأليف، كحياتنا. أسترق النظر إلى نافذة غرفتي المفتوحة وأتساءل: هل أنا هناك؟ ويعجبني أن أدحرج السؤال على الدرج، وأدرجه في سليقة المسرحية: في الفصل الأخير، سيبقى كل شيء على حاله ... شجرةُ التين في الحديقة. الكنيسةُ اللوثرية في الجهة المقابلة. يوم الأحد في مكانه من الرُزنامة. والبئر المهجورة والدلو الصدىء. أما أنا، فلن أكون في غرفتي ولا في الحديقة. هكذا يقتضي النص: لا بد من غائب للتخفيف من حمولة المكان!

## قال: أَنا خائف

خافَ. وقال بصوت عال: أنا خائف. كانت النوافذ مُحْكَمَةَ الإغلاق، فارتفع الصدى واتّسع: أنا خائف. صَمَتَ، لكن الجدارن ردَّدتْ: أنا خائف. الباب والمقاعد والمناضد والستائر والبُسُط والكتب والشموع والأقلام واللوحات قالت كُلُّها: أنا خائف. خاف صوت الخوف فصرخ: كفى! لكن الصدى لم يردِّد: كفى! خاف المكوث في البيت فخرج إلى الشارع. رأى شجرة حَوْرٍ،

مكسورة فخاف النظر إليها لسبب لا يعرفه. مرت سيارة عسكرية مسرعة، فخاف المشي على الشارع. وخاف العودة إلى البيت لكنه عاد مضطراً. خاف أن يكون قد نسي المفتاح في الداخل، وحين وجده في جيبه أطمأنّ. خاف أن يكون تيار الكهرباء قد انقطع. ضغط على زر الكهرباء في ممر الدرج، فأضاء، فاطمأن. خاف أن يتزحلق على الدرج فينكسر حوضه، ولم يحدث ذلك فاطمأنّ. وضع المفتاح في قفل الباب وخاف ألا ينفتح، لكنه انفتح فاطمأنّ. دخل إلى البيت، وخاف أن يكون قد نسي نفسه على المقعد خائفاً. وحين تأكد أنه هو من دخل لا سواه، وقف أمام المرآة، وحين تعرَّف إلى وجهه في المرآة اطمأنّ. أَصغى إلى الصمت، فلم يسمع شيئاً يقول: أنا خائف، فاطمأنّ. ولسببٍ ما غامض ... لم يعد خائفاً!

# هدير الصمت

أُصغي إلى الصمت. هل ثمة صمت؟ لو نسينا اسمه، وأَرهفنا السمع إلى ما فيه، لسمعنا أَصوات الأرواح الهائمة في الفضاء، والصرخات التي اهتدت إلى الكهوف الأولى. الصمت صوت تبخّر واختبأ في الريح، وتكسّر أَصداء محفوظةً في جِرارٍ كونيّة. لو أرهفنا السمع لسمعنا صوتَ ارتطام التفاحة بحجر في بستان الله، وصرخةَ هابيل الخائفةَ من دمه الأول، وأَنينَ الشهوة الأصلي بين ذكر وأُنثى

لا يعرفان ما يفعلان، ولسمعنا تأملاتِ يونس في بطن الحوت، والمفاوضاتِ السرية بين الآلهة القدامى. ولو أرهفنا السمع إلى ما وراء حجاب الصمت، لاستمعنا إلى أحاديث الليل بين الأنبياء وزوجاتهم، وإلى إيقاعات الشعر الأولى، وإلى شكوى الأباطرة من الضجر، وإلى حوافر خيل في حرب مجهولة الزمان والمكان، وإلى الموسيقى المصاحبة لطقس الدعارة المقدس، وإلى بكاء جلجامش على صاحبه أَنكيدو، وإلى حيرة القرد حين قفز من الشجرة إلى عرش القبيلة، وإلى الشتائم المتبادلة بين سارة وهاجر. لو أَرهفنا السمع إلى صوت الصمت ... لصار كلامنا أَقل!

# شخص يطارد نفسه

كما لو كنتَ غيرك سادراً،
لم تنتظر أَحداً
مشيتَ على الرصيف
مشيتُ خلفك حائراً
لو كنتَ أنتَ أنا لقلتُ لَكَ:
انتظرني عند قارعة الغروب
ولم تقل: لو كنتَ أنتَ أنا
لما احتاج الغريب إلى الغريب.
ألشمس تضحك للتلال. ونحن نضحك
للنساء العابرات. ولم تقل إحدى النساء:

هناك شخص ما يُكَلِّم نفسه ...
لم تنتظر أحداً
مشيتَ على رصيفك سادراً
ومشيتُ خلفك حائراً.
والشمسُ غابت خلفنا ...
ودَنَوْتَ مني خطوةً أو خطوتين
فلم تجدني واقفاً أو ماشياً
ودَنَوْتُ منك فلم أجدك ...
أكنتُ وحدي دون أن أدري
بأني كنت وحدي؟ لم تقل
إحدى النساء: هناك شخصٌ ما
يطارد نَفْسَهُ!

# حنين إلى نسيان

ظلام. وقعتُ عن السرير ممسوساً بسؤال: أَين أنا؟ بحثت عن جسدي فأحسستُ به يبحث عني. وبحثت عن مفتاح النور لأرى ما يحدث لي، فلم أَجده. تعثَّرتُ بكرسيّ فأسقطتُهُ وأسقطني على ما لا أَعرف. وكأعمى يرى بأصابعه الأشياء فَتَّشت عن جدار أَستند إليه، فارتطمتُ بخزانة. فتحتُها ... فلامستْ يدي ثياباً شَمَمْتُها فعثرتُ على رائحتي. أدركت أني في حيِّز من العالم يخصني، وانفصل عني أو انفصلت عنه. تابعتُ البحث عن

مفتاح النور لأرى إن كان ذلك صحيحاً، فوجدته. تعرفت إلى أشيائي: هذا سريري، وهذا كتابي، وهذه حقيبتي، وهذا الذي في البيجامة هو أَنا تقريباً. فتحت النافذة، وسمعت نباح كلاب في الوادي. ولكن، لم أتذكر متى عدت، ولا أتذكر أني وقفتُ على الجسر. ظننتُ أني أحلم بأني هنا ولستُ هنا. غسلت وجهي بماء بارد، وتأكدت من يقظتي. سرت إلى المطبخ فرأيت فواكه طازجة، وصحوناً غير مغسولة تدلُّ على أنني تناولت العشاء هنا. لكن، متى حدث ذلك؟ تصفحت جواز السفر فأدركت أني وصلت اليوم، دون أن أتذكر أني سافرت. هل حصل فصامٌ ما في ذاكرتي؟ هل انفصل وجودي النفسي عن وجودي الفيزيائي. خفتُ .. واتصلتُ بصديق في ساعة متأخرة من الليل: أُعاني من وعكة في الذاكرة ... أين أنا؟ قال: أنت في رام الله. سألته: متى أتيت؟ قال: اليوم، وكنا معاً بعد الظهر في حديقة ڤاتشي. سألته: لماذا لا أتذكر،

هل تظن أني مريض؟ قال: يحدث ذلك مع مرضى من نوع آخر: مرضى الحنين إلى النسيان!

# نهر يموت من العطش

كان نهرٌ هنا،

وله ضفّتان

وأُمٌّ سماويّةٌ أرضَعَتْهُ السحابَ المُقَطَّر،

نهرٌ صغيرٌ يسير على مهله

نازلاً من أعالي الجبال

يزور القرى والخيام كضيف لطيف خفيف

ويحمل للغَوْر أشجارَ دفلى ونخل

ويضحك للساهرين على ضفتيه:

«اشربوا لَبَنَ الغيمِ

واسقوا الخيول

وطيروا إلى القدس والشام»

كان يغني فروسيةً مرةً

وهوى مَرةً ...

كان نهراً له ضفتان

وأُمٌّ سماويّةٌ أرضعته السحاب المُقَطَّر

لكنهم خطفوا أُمَّه،

فأصيب بسكتة ماء

ومات، على مهله، عطشاً!

# الجدار

أَفعى معدنية ضخمة تلتفُّ حولنا. تبتلع جدراننا الصغيرة الفاصلة بين غرفة النوم والحمام والمطبخ وغرفة الاستقبال. أَفعى لا تسعى بخط مستقيم لئلَّا تَتَشَبَّه بنظراتنا إلى أمام. تتلوَّى وترفع كابوسها المصنوع من فقرات إسمنت مُقَوَّى بحديد مرن ... يُسَهِّلُ عليها الحركة إلى ما تبقَّى لنا من فُتات جهاتٍ وأحواضِ نعناع. أَفعى تسعى لوضع بيضها بين زفيرنا والشهيق: لنقول مرة واحدة: نحن،

من فرط ما نختنق، نحن الغرباء. ننظر في مرايانا فلا نرى غير اقتراب الأفعى من أعناقنا. لكننا، وبقليل من جهد الرؤيا، نرى ما فوقها: نرى سماء تتثاءب ضجراً من مهندسين يسقفونها بالبنادق والبيارق. ونراها في الليل تتلألأ بكواكب تحدِّق إلينا بحنان. ونرى أَيضاً ما خلف جدار الأفعى: نرى حُرَّاس الـچيتو خائفين مما نفعل خلف ما تبقى لنا من جدران صغيرة... نراهم يُزَيِّتون أَسلحتهم لقتل العنقاء التي ظنوها تختبىء عندنا، في قنّ دجاج. فلا نملك إلّا أَن نضحك!

# شريعة الخوف

ينظر القاتل إلى شَبَح القتيل، لا إلى عينيه، بلا ندم. يقول لمن حوله: لا تلوموني، فأنا خائف. قتلتُ لأني خائف، وسأقتل لأني خائف. بعض المشاهدين المدربين على تفضيل التحليل النفساني على فقه العدل، يقول: إنه يدافع عن نفسه. والبعض الآخر من المعجبين بتفوُّق التطور على الأخلاق، يقول: العدل هو ما يفيض من كرم القوة. وكان على القتيل أن يعتذر عما سبَّب للقاتل من صدمة!

والبعض الآخر، من فقهاء التمييز بين الواقع والحياة، يقول: لو وقفتْ هذه الحادثة العادية في بلاد أخرى غير هذه البلاد المقدسة، أكان للقتيل اسم وشهرة؟ فلنذهبنَّ، إذن، إلى مواساة الخائف. وحين مشوا في مسيرة التعاطف مع القاتل الخائف، سألهم بعض المارة من السُيَّاح الأجانب: وما هو ذنب الطفل؟ فأجابوا: سيكبر ويسبِّب خوفاً لابن الخائف. وما هو ذنب المرأة؟ قالوا: ستلد ذاكرة. وما هو ذنب الشجرة؟ قالوا: سيطلع منها طائر أَخضر. وهتفوا: الخوف، لا العدل، هو أساس الملك. أما شبح القتيل، فقد أطلَّ عليهم من سماء صافية. وحين أطلقوا عليه النار لم يروا قطرة دم واحدة!.. وصاروا خائفين!

# على قلبي مشيت

على قلبي مشيتُ، كأنَّ قلبي
طريقٌ، أو رصيفٌ، أو هواءُ
فقال القلبُ: أَتْعَبَني التماهي
مع الأشياء، وانكسر الفضاءُ
وأَتعبني سؤالُكَ: أَين نمضي
ولا أرضٌ هناك ... ولا سماءُ
وأَنتَ تطيعني ... مُرني بشيء
وصوِّبْني لأفعل ما تشاءُ
فقلتُ له: نسيتُكَ مذ مشينا
وأَنتْ تَعِلَّتي، وأنا النداءُ

تمرَّدْ ما استطعت عليَّ، وٱركُضْ
فليس وراءنا إلَّا الوراءُ!

# روتين

مُنْخَفَضٌ جويّ. الرياح شمالية غربية، زخّات من مطر. البحر مجعَّد رمادي. أشجار السرو عالية. وغيوم الخريف تسقط اليوم ثلاثين شهيداً شمالي غزة، بينهم امرأتان اشتركتا في مظاهرة تطالب بحصة النساء من الأمل. السماء عالية. البحر هادىء أزرق. الرياح شمالية. الرؤية صافية. لكن غيوم الخريف ــ الاسم الرمزي للقتل ــ تقضي على أسرة كاملة مكونة من سبع عشرة حياة ... تبحث الأخبار عن أسمائهم تحت الأنقاض. ما عدا ذلك،

تبدو الحياة غير العادية عاديَّةَ الوتيرة. ما زال الشيطان يتباهى بخلافه الطويل مع الله. وما زال الأفراد إذا صحوا أحياء قادرين على القول: صباح الخير. ثم يذهبون إلى أشغالهم الروتينيَة: تشييع الشهداء. ولا يعرفون إن كانوا سيعودون سالمين إلى ما تبقى من بيوت تحاصرها جرافات ودبابات وأشجار سرو مكسورة. والحياة، من فرط لامبالاتها، لا تُرَى إلّا تخطيطاً أولياً لأمنيّة عصيّة على التدوين: المساواة مع بنات آوى في الاستمتاع بكهف آمن. لكننا مطالبون بمهمة صعبة: الوساطة بين الله والشيطان للتوصل إلى هدنة قصيرة ندفن خلالها شهداءنا!

# بندقيَّة وكفن

«لن يهزمني أَحد. ولن أَنتصر على أَحد» — قال رَجُلُ الأمن المُقَنَّعُ المُكَلَّفُ مهمَّة غامضة. أطلق النار على الهواء، وقال: على الرصاصة وحدها أن تعرف مَنْ هو عدوِّي. ردَّ عليه الهواء برصاصة مماثلة. لم يكترث المارة العاطلون من العمل بما يدور في بال رجل الأمن المقنع العاطل مثلهم من العمل، لكنه يبحث عن حربه الخاصة منذ لم يجد سلاماً يدافع عنه. نظر إلى السماء فرآها عالية صافية. وبما أنه لا يحبُّ الشعر فلم ير فيها مرآة للبحر. كان

جائعاً، وازداد جوعاً حين شمَّ رائحة الفلافل، فأحسَّ بأن بندقيته تُهينُهُ. أطلق رصاصة على السماء لعلَّ عنقوداً من عنب الجنّة يسَّاقط عليه. ردّت عليه رصاصة مماثلة، فأجَّجت حماسته المكبوتة إلى القتال. فاندفع إلى حرب متخيَّلة، وقال: عثرت أخيراً على عمل. إنها الحرب. وأَطلق النار على رجل أَمن مُقَنَّع آخر، فأصاب عدوَّه المُتَخَيَّل، وأُصيب بجرح طفيف في ساقه. وحين عاد إلى بيته في المخيّم متكئاً على بندقيته، وجد البيت مزدحماً بالمعزّين، فابتسم لأنه ظنَّ أنهم ظنوا أنه شهيد، وقال: لم أَمت!. وعندما أخبروه أنه هو قاتل أخيه، نظر إلى بندقيته باحتقار، وقال: سأَبيعها لأشتري بثمنها كفناً يليق بأخي!

# إن أَردنا

سنصيرُ شعباً، إن أَردنا، حين نعلم أَننا لسنا ملائكةً، وأَنَّ
الشرَّ ليس من اختصاص الآخرينْ

سنصير شعباً حين لا نتلو صلاة الشكر للوطن المقدَّس،
كلما وجد الفقيرُ عشاءَهُ ...

سنصير شعباً حين نشتم حاجبَ السلطان والسلطان،
دون محاكمةْ

سنصير شعباً حين يكتب شاعرٌ وصفاً إباحياً لبطن
الراقصةْ

سنصير شعباً حين ننسى ما تقولُ لنا القبيلة...، حين يُعْلي الفرد من شأن التفاصيل الصغيرةْ

سنصير شعباً حين ينظر كاتبٌ نحو النجوم، ولا يقول: بلادنا أَعلى... وأجملْ!

سنصير شعباً حين تحمي شرطةُ الآداب غانيةً وزانيةً من الضرب المبرِّح في الشوارعْ!

سنصير شعباً حين لا يتذكَّرُ الفردُ الفلسطينيُّ رايته سوى في ملعب الكرة الفسيح، وفي مسابقة الجمال، ويوم نكبته فقطْ

سنصير شعباً، إن أَردنا، حين يؤذن للمغنِّي أَن يرتِّل آية من «سورة الرحمن» في حفل الزواج المُخْتَلَطْ

سنصير شعباً حين نحترم الصواب، وحين نحترم الغَلَطْ!

# وَقْتٌ مغشوش

لأنَّ أَحداً لا يأتي في موعده. ولأنَّ الانتظار يشبه الجلوس على صفيح ساخن... أَعاد عقارب ساعته اليدوية عشرين دقيقة إلى الوراء. هكذا خفَّف عن نفسه عذاب الانتظار، ونسي الأَمر. لكنه، ومنذ غشَّ الوقت، لم يصل إلى أيّ موعد. يجلس على حقيبته في المحطة منتظراً قطاراً لا يصل أبداً، دون أن ينتبه إلى أن القطار مَرَّ في موعده الدقيق، وإلى أنه هو الذي تأخر. يعود إلى بيته خائباً. يفتح حقيبة السفر

ويعيد محتوياتها إلى الأدراج ككُل عائدٍ من سفر. ثم يتساءل غاضباً: لماذا لا يحترمون الوقت؟ وحين دقَّ الموتُ على بابه مستأذناً بالدخول، وبَّخه قائلاً: لماذا وصلت قبل الموعد بعشرين دقيقة؟. اختبأ في الحمام. ولم يفتح له الباب، كأنه مات في الحمَّام!

# إتقان

فضاء لازورديّ، عالٍ وعريض ومغسول بماء الضوء. وإنْ ظَهَرَتْ غيمةٌ خفيفة كفقاعة صابون، فلا تلبث أن تذوب في قصيدة منسية. فضاء دائري محمول على أشجار الغابة الباسقة وعلى أَجنحة النوارس، محمول على هودج في ذاكرة الحجاج إلى الأرض المقدسة. فضاء شاسع واسع مُتْقَنُ التكوين والتلوين. من فرط الإتقان ... أَخشى من حريق في الغابة، ومن غارة على النوارس، ومن سطو على

زوجة نبي. أَخشى من خلل طارىء في نظام الأشياء ... وأخشى من كتابة قصيدة موزونة ... على سطح هذه الشفافية!

# واحد، اثنان، ثلاثة

صعد الممثِّل إلى خشبة المسرح مع مهندس الصوت: واحد، اثنان، ثلاثة. توقَّفْ! سنجرِّبُ الصوت مرة ثانية: واحد، اثنان، ثلاثة، توقَّفْ! هل تفضّل قليلاً من الصدى؟ قال: لا أَعرف ... افعل ما تشاء!. كانت القاعة خالية تماماً. مئات المقاعد الخشبية تحملق فيه بصمتِ مقبرةٍ جماعيّة، وتدعوه إلى المغادرة أو إلى الانضمام إليها. آثر الخيار الثاني، واختار مقعداً في الوسط ... ونام. أَيقظه المخرجُ ليجري البروفة الأخيرة. صعد

إلى الخشبة، وارتجل فصلاً طويلاً إذ أعجبته فكرة أن يخاطب المقاعد الفارغة، وأن لا يصفق له أَحد ما عدا المخرج. ثم ارتجل فصلاً آخر بلا أَخطاء. وفي المساء، حين امتلأت القاعة بالمشاهدين، ورُفِعَت الستارة، وقف واثقاً من سلامة الصمت ... نظر إلى الصّفّ الأمامي، وتذكر نفسه جالساً هناك، فارتبك. نسي النصَّ المكتوب وتبخَّر النصُّ المرتجل ... ونسي المشاهدين، واكتفي بتجريب الصوت: واحد، اثنان، ثلاثة. ثم كَرَّر: واحد، اثنان، ثلاثة ... حتى أُغمي عليه وضجَّت القاعة بالتصفيق!

# صناديق فارغة

إذا كان السلامُ هدنةً بين حربين، فإنَّ للموتى حقَّ الإدلاء بأصواتهم: سنختار الجنرال. وإذا كانت الحرب حادثةَ سيرٍ وقعت على الأوتوستراد السريع، فإنَّ على الأحياء واجب الإدلاء بأصواتهم: سنختار الحمار. لكن الأحياء لم يذهبوا إلى صناديق الاقتراع، لا لأن الثلج كان يندف، بل لأن شللاً مفاجئاً أصاب سكان المدينة، وحين فتحوا النوافذ رأوا عناكب تبني بيوتها في الثلج، فأصيبوا بالعمى. وحين

أرهفوا السمع إلى ما يحدث، هبَّت عواصف لا عهد لهم بأصواتها الوحشية، فأصيبوا بالصمم. وقال المنجمون: هي فوضى الكون على باب القيامة. ومن حُسْن حظنا أو من سوئه، أن المؤرخين الأجانب الخبراء في مصائرنا وتاريخنا الشفهي لم يكونوا هنا، فلم نعرف ما حلَّ بنا!

# عن اللا شيء

هو اللا شيء يأخذنا إلى لا شيء،

حدَّقنا إلى اللاشيء بحثاً عن معانيه ...

فجرَّدنا من اللاشيء شيءٌ يشبه اللاشيءَ

فاشتقنا إلى عبثية اللاشيء

فهو أخفّ من شيء يُشَيِّئنا ...

يحبُّ العبدُ طاغيةً

لأن مَهابة اللاشيء في صنم تُؤَلِّهُهُ

ويكرهُهُ

إذا سقطت مهابته على شيء

يراهُ العبد مرئياً وعاديّاً

فَيَـهْوَى العبدُ طاغيةً سواهُ
يطلُّ من لا شيءَ آخرَ ...
هكذا يتناسل اللاشيء من لا شيء آخرَ ...
ما هو اللاشيء هذا، السيِّـدُ المتجدِّدُ،
المتعدِّدُ، المتجبِّرُ، المتكبِّرُ، اللزجُ
الـمُهَرِّجُ... ما هو اللاشيء هذا

رُبَّما هو وعكةٌ رُوحيَّـةٌ
أو طاقةٌ مكبوتةٌ
أو، ربما هو ساخرٌ متمرِّسٌ
في وصف حالتنا!

# خيالي ... كلب صيد وفيّ

على الطريق إلى لا هدف، يُبَلِّلني رذاذ ناعم، سقطتْ عليَّ من الغيم تُفَّاحةٌ لا تشبه تفاحة نيوتن. مددتُ يدي لألتقطها فلم تجدها يدي ولم تَرَها عيناي. حدَّقتُ إلى الغيوم، فرأيتُ نُتَفاً من القطن تسوقها الريح شمالاً، بعيداً عن خزانات الماء الرابضة على سطوح البنايات. وتدفَّق الضوءُ الصافي على إسفلت يَتَّسع ويضحك من قلَّة المشاة والسيارات ... وربما من خطواتي الزائغة. تساءلتُ: أَين التفاحة التي

سقطت عليَّ؟ لعلَّ خيالي الذي استقلَّ عني هو الذي اختطفها وهرب. قلت: أَتبعه إلى البيت الذي نسكنه معاً في غرفتين متجاورتين. هناك، وجدت على الطاولة ورقة كُتِبَ علَيها، بحبر أَخضر، سطر واحد: «تفاحة سقطت عليَّ من الغيوم»، فعلمت أَن خيالي كلب صيد وفيّ!

# لو كنتُ غيري

في العزلة كفاءةُ المُؤْتَمَن على نفسه ـ يكتب العبارة، وينظر إلى السقف. ثم يضيف: أن تكون وحيداً ... أن تكون قادراً على أن تكون وحيداً هو تربية ذاتيَّة. ألعزلة هي انتقاء نوع الأَلم، والتدرّب على تصريف أفعال القلب بحريّة العصاميّ ... أَو ما يشبه خلوَّك من خارجك وهبوطك الاضطراري في نفسك بلا مظلَّة نجاة. تجلس، وحدك، كفكرة خالية من حجة البرهان، دون أن تحدس بما يدور من حوار بين

الظاهر والباطن. العزلة مصفاة لا مرآة. ترمي ما في يدك اليسرى إلى يدك اليمنى، ولا يتغيَّر شيء في حركة الانتقال من اللافكرة إلى اللامعنى. لكن هذا العَبَثَ البريء لا يؤذي ولا يجدي: وماذا لو كنتُ وحدي؟ العزلة هي اختيار المُتْرَف بالممكنات ... هي اختيار الحرّ. فحين تجفّ، وتضيق بك نفسُك، تقول: لو كنتُ غيري لانصرفتُ عن هذه الورقة البيضاء إلى محاكاة رواية يابانية، يصعد كاتبها إلى قمة الجبل ليرى ما فعلت الكواسر والجوارح بأجداده الموتى. لعلَّه ما زال يكتب، وما زال موتاه يموتون. لكن تنقصني الخبرة. والقسوة الميتافيزيقية تنقصني. وتقول: لو كنتُ غيري، كما أنا الآن، لنزلتُ إلى بطن الوادي، حيث تؤجّج فتاة مكبوتة شهوتها بورقة تين خشنة وتَعَضُّ سروالها، لكن، تنقصني مهارة الوصف. والجرأة الإباحية تنقصني!

# اغتيال

يغتالني النُقَّادُ أَحياناً:
يريدون القصيدةَ ذاتَها
والاستعارة ذاتها ...
فإذا مَشَيْتُ على طريقٍ جانبيّ شارداً
قالوا: لقد خان الطريقَ
وإنْ عثرتُ على بلاغة عُشْبَةٍ
قالوا: تخلَّى عن عناد السنديان
وإن رأيتُ الورد أَصفرَ في الربيع
تساءلوا: أَين الدمُ الوطنيُّ في أوراقِهِ؟
وإذا كتبتُ: هي الفراشةُ أُختيَ الصغرى

على باب الحديقةِ

حرّكوا المعنى بملعقة الحساء

وإن هَمَسْتُ: الأمُّ أمٌّ، حين تثكل طفلها

تذوي وتيبس كالعصا

قالوا: تزغرد في جنازته وترقُصُ

فالجنازةُ عُرْسُهُ ...

وإذا نظرتُ إلى السماء لكي أَرى

ما لا يُرَى

قالوا: تَعَالى الشعرُ عن أَغراضه...

يغتالني النُقَّادُ أَحياناً

وأَنجو من قراءتهم،

وأشكرهم على سوء التفاهم

ثم أَبحثُ عن قصيدتيَ الجديدةْ!

# حفيف

كَمُصْغٍ إلى وَحْيٍ خفيّ، أُرهف السمع إلى صوت أوراق الشجر الصيفيّ ... صوتٍ خَفِرٍ مُخَدَّر مُتَحدِّرٍ من أَقاصي النوم ... صوتٍ شاحب ذي رائحة حنطية قادم من عزلة ريفيّة ... صوتٍ متقطعٍ مُوَزَّع بتقاسيمَ مرتجلةٍ على أوتار نسيم مُتَمَهِّل. لا يسترسل ولا يطيل الفواصل. لصوت أوراق الشجر في الصيف تَقَشُّف الهمس وتعفُّف النداء. كأنَّ الصوت هذا لي وحدي، يخطفني من ثقل المادة إلى خفّة

الإشراق: هناك، وراء التلال، وما بعد الخيال، حيث يتساوى الظاهر والباطن، أَسبح خارج ذاتي في ضوء بلا شمس. بعد غفوة تشبه الصحوة، أو بعد صحوة تشبه الغفوة، يعيدني حفيف الشجر إلى ذاتي معافىً مُصَفّىً من الوساوس والهواجس. لا أَسأل عن معنى هذا الصوت: هل هو نجوى ورقة إلى أختها في هذا الخلاء، أم هو حنين الهواء إلى قيلولة؟ صوت بلا كلام يهدهدني ويمسّدني ويحولني وعاء ينضح بما ليس منه... ولا فيه. كأنه عاطفة تبحث عن عاطفيّ ... شبيه!

# إستعارة

في هذا النهار الأزرق، تُطيل الوقوفَ على جبل مرتفع، وتطيل النظر إلى غيومٍ تَحْتَكَ، تغطّي البحر والسهل. فتظنُّ أنك أعلى من نفسك ... شِبْهُ طائرٍ لم يوجد إلَّا في استعارة. وتُغْريك الاستعارةُ بأن تنفصل عنها وتنظر إلى سماء مهجورة، كصحراء زرقاء، خلوٍ من سراب. ثم تناديك الاستعارة للرجوع إلى مصدرها، فلا تجد طريقاً في الغيوم.

وفي هذا الليل الأزرق، ترى الجبال

تنظر إلى النجوم، وترى النجوم تنظر إلى الجبال. وتظن أنها تراك، فتشكرها على لطف المسامرة. ولا تريد الخروج من الاستعارة لئلّا تسقط في بئر الوحدة!

# في صحبة الأشياء

كنا ضيوفاً على الأشياء، أكثرُها
أقلُّ منّا حنيناً حين نهجُرُها

النهر يضحك، إذ تبكي مسافرةٌ:
مُرِّي، فأُولى صفات النهر آخِرُها

لا شيء ينتظرُ. الأشياءُ غافلةٌ
عنا، ونحن نُحَيِّيها ونشكرها

لكننا إذ نُسَمِّيها عواطِفَنا

نصدِّقُ الاسم. هل في الاسم جوهرُها؟

نحن الضيوف على الأشياء، أكثرنا
ينسى عواطِفَهُ الأولى ... ويُنْكِرُها!

# شال حرير

شال على غصن شجرة. مرّتْ فتاةٌ من هنا، أو مرت ريح بدلاً منها، وعلّقت شالها على الشجرة. ليس هذا خبراً. بل هو مطلع قصيدة لشاعر متمهِّل أَعفاه الحُبُّ من الأَلم، فصار ينظر إليه ــ عن بعد ــ كمشهد طبيعةٍ جميل. وضع نفسه في المشهد: الصفصافة عالية، والشال من حرير. وهذا يعني أن الفتاة كانت تلتقي فتاها في الصيف، ويجلسان على عشب ناشف. وهذا يعني أيضاً أنهما كانا يستدرجان العصافير

إلى عرس سري، فالأفق الواسع أَمامهما، على هذه التلة، يغري بالطيران، ربما قال لها: أَحنُّ إليكِ، وأَنتِ معي، كما لو كنتِ بعيدة. وربما قالت له: أَحضنكَ، وأَنت بعيد، كما لو كنتَ نهديَّ. وربما قال لها: نظرتك إليَّ تذوِّبني، فأصير موسيقى. وربما قالت له: ويدك على ركبتي تجعل الوقت يَعْرَق، فافْرُكْني لأذوب ... واسترسل الشاعر في تفسير شال الحرير، دون أن ينتبه إلى أن الشال كان غيمة تعبر، مصادفة، بين أغصان الشجرة عند الغروب.

# ما يشبه الخسارة

أَصعدُ من هذا الوادي، على درجات نفسي تقريباً. أَصعد إلى ربوة عالية لأرى البحر. لا أُغنية تحملني ولا سوء تفاهم مع الكينونة. أَتسلَّى بمراوغة ظلِّي، وبالتفكير المريح في مآل قوس قزح الذي يلهيني، فجأة، عن ظلِّي المشتبك بعوسجة جرحته ولم ينزف. أَنحني عليه لأسعفه من وخزات الشوك، فتنغرز شوكةٌ في يدي وتسيل قطرةُ دمٍ حمراءُ خِلْتُها، في البداية، انعكاساً لأحد ألوان قوس قزح.

لكن أَلماً خفيفاً في يدي نَبَّهني إلى أَن ما تفعله الشمسُ بكثافة الماء الطائرِ هو شيء آخر. ضمَّدتُ جرحي التافه بمنديل ورقيّ، وواصلتُ الصعود إلى الربوة العالية لأرى البحر. لكن الغيوم تكاثفت وغطَّت السهلَ والجهاتِ والبحرَ الذي وقع أَسيراً في إحدى الحروب. هبط الليل على كل شيء، وظهرتْ أضواء المستعمرات من كل ناحية. وحين نزلتُ على درجات نفسي تقريباً، من الربوة العالية إلى الوادي، تذكَّرتُ أني نسيتُ ظلِّي عالقاً بعوسجة. لا أعرف إن كنت حزنت أَم لا، فإنَّ خسارةً أدبيَّةً مثلَ هذه لا تصلح للتدوين. وقلت: غداً أصعد إلى ربوة أعلى لأرى البحر خلف المستعمرات. لكنني سأربط ظلي برَسَنٍ لئلّا أُضيّعه مرة ثانية!

# أَرضٌ فضيحة

أَرضٌ ضيِّقةٌ هي تلك الأرض التي نسكنها وتسكننا. أَرض ضيِّقة لا تَتّسع لاجتماع قصير بين نبيّ وجنرال. وإذا تعارك ديكان على دجاجة وعلى خُيَلاء، تطاير ريشهما عن الأسوار. أرضٌ ضيِّقة لا حميميةَ فيها لنكاح بين ذكر الحمام وأُنثى الحمام. أَرضٌ فضيحةٌ. أَرضٌ صفراءُ الصيف ينقر الشوك فيها وجه الصخر لتزجية الوقت، حتى لو قالت قصائدنا عكس ذلك، وأَمدَّتها بمختارات من أوصاف

الفردوس لإشباع جوع الهوية إلى جماليات. ونحن، رواةَ ما تحتاج إليه البداهةُ من وثائق رسمية وشعرية، نعلم أن السماء لن تتخلّى عن أشغالها الكثيرة لتدلي بشهادتها. أَرض ضيّقة ... ونحبّها. ونظن أَنها تحبّنا أَحياء وموتى. نحبها، ونعلم أنها لا تتسع لضحكة الفاجر، ولا لصلاة الراهبة، ولا لنشر الغسيل بعيداً عن فضول الجيران، ولا تَتّسع للسطر الرابع عشر من سوناتة مترجمة. أرضٌ ضيِّقة لا ساحة فيها تكفي لمعركة حقيقيّة مع عَدُوّ خارجيّ، ولا قاعة تسع المجتمعين لصوغ ديباجة عريضة عن سلامٍ كَذِب. ومع ذلك، أو لذلك... يقولون إن أَحد الآلهة الضجرين اختارها كهفاً للخلوة، والاختفاء عن المتطفلين الذين سرعان ما سرقوا قرون أكباشنا، واستخدموها سلاحاً لإبعادنا عن باب الكهف المُقَدَّس!

# صيف وشتاء

لا جديد. الفصولُ هنا اثنانِ:
صَيْـفٌ طويل كمئذنة في أقاصي المدى.
وشتاءٌ كراهبةٍ في صلاة خشوعْ.
وأَمَّا الربيعْ
فلا يستطيع الوقوف على قدميه
سوى للتحية: أَهلاً بكم
في صعود يسوعْ.
وأَمَّا الخريف،
فليس سوى خُلْوةٍ
للتأمُّل في ما تساقط من عمرنا

في طريق الرجوعْ.
فأين نسينا الحياةَ؟ سألت الفراشةَ
وهي تُحوِّم في الضوء
فاحترقتْ بالدموع!

# غيمة مُلَوَّنة

وأَنا أَغسل الصحون، أمتلىء بفراغ منعش وأَملأ الوقت بفقاعات الصابون. لماء الحنفيَّة إيقاعٌ يفتقر إلى آلة موسيقية. أُصاحبه بصفير متقطّع، وبمقطع من أُغنية شائعة لا شخصية لها. أَلهو بالرغوة الشبيهة بغيمة تلمع فيها أَلوانٌ موسميَّةٌ وتنطفىء. أُمْسِكُ الغيمةَ بيديّ وأوزِّعها على الصحون والكؤوس والفناجين والملاعق والسكاكين. تَنْتَفِخُ الغيمة كُلَّما سالت عليها قطراتُ الماء. أحفِنها وأُطيِّرها

في الهواء فتضحك لي، وأزداد امتلاء بفراغي. لا أفكِّر بشيء كأني ظهيرة لا مبالية. لكن صُوَر ذكريات محايدة تهبط من مكان بعيد إلى حوض الماء، ذكريات لا تجرح ولا تفرح، كنزهة في حرش صنوبر، أو كانتظار حافلة تحت المطر، فأغسلها بحرصِ مَنْ يحمل إناء من بلّور أدبي. وحين أتأكد من أنها لم تنكسر تعود سالمةً إلى مصادرها الأولى في حرش صنوبر، وأَبقى هنا. أَلهو برغوة الصابون، وأسهو عمَّا ليس موجوداً. أنظر برضا إلى ذهني الصافي كزجاج المطبخ، وإلى خُلُوِّ قلبي من الشوائب كصحن مغسول بعناية. وحين أحسّ بأني امتلأت تماماً بالفراغ المنعش، أملأ الفراغ بكلمات لا تخصّ أحداً سواي: بهذه الكلمات!

# ربيع سريع

مَرَّ الربيعُ سريعاً
مثل خاطرةٍ
طارت من البالِ —
قال الشاعر القَلِقُ

في البدء، أَعجبه إيقاعُهُ
فمشى سطراً فسطراً
لعلَّ الشكل ينبثقُ

وقال: قافيةٌ أخرى

تساعدني على الغناء
فيصفو القلبُ والأُفُقُ

مَرَّ الربيع بنا
لم ينتظر أَحداً
لم تنتظرنا «عصا الراعي»
ولا الـحَبَـقَ

غنّى، ولم يجد المعنى
وأَطربَـهُ
إيقاعُ أُغنية ضاقت بها الطُرُقُ

وقال: قد يُولَدُ المعنى
مصادفةً
وقد يكون ربيعي ... ذلك القَلَقُ!

# أَلحياة ... حتى آخر قطرة

وإن قيل لي ثانيةً: ستموت اليوم، فماذا تفعل؟ لن أَحتاج إلى مهلة للرد: إذا غلبني الوَسَنُ نمتُ. وإذا كنتُ ظمآنَ شربتُ. وإذا كنتُ أكتب، فقد يعجبني ما أكتب وأتجاهل السؤال. وإذا كنت أتناول طعام الغداء، أضفتُ إلى شريحة اللحم المشويّة قليلاً من الخردل والفلفل. وإذا كنتُ أُحلق، فقد أجرح شحمة أذني. وإذا كنتُ أقبِّل صديقتي، التهمتُ شفتيها كحبة تين. وإذا كنت

أقرأ قفزت عن بعض الصفحات. وإذا كنتُ أقشِّر البصل ذرفتُ بعض الدموع. وإذا كنتُ أمشي واصلتُ المشي بإيقاع أبطأ. وإذا كنتُ موجوداً، كما أنا الآن، فلن أفكِّر بالعدم. وإذا لم أكن موجوداً، فلن يعنيني الأمر. وإذا كنتُ أستمع إلى موسيقى موزارت، اقتربتُ من حيِّز الملائكة. وإذا كنتُ نائماً بقيتُ نائماً وحالماً وهائماً بالغاردينيا. وإذا كنتُ أضحك اختصرتُ ضحكتي إلى النصف احتراماً للخبر. فماذا بوسعي أن أفعل؟ ماذا بوسعي أن أفعل غير ذلك، حتى لو كنتُ أشجع من أحمق، وأَقوى من هرقل؟

# أَثر الفراشة

أَثَرُ الفراشة لا يُرَى
أَثَرُ الفراشة لا يزولُ

هو جاذبيّةُ غامضٍ
يستدرج المعنى، ويرحلُ
حين يتَّضحُ السبيلُ

هو خفَّةُ الأبديِّ في اليوميّ
أشواقٌ إلى أَعلى
وإشراقٌ جميلُ

هو شامَةٌ في الضوء تومىء
حين يرشدنا إلى الكلماتِ
باطننا الدليلُ

هو مثل أُغنية تحاولُ
أن تقول، وتكتفي
بالاقتباس من الظلالِ
ولا تقولُ ...

أَثَرُ الفراشة لا يُرَى
أَثَرُ الفراشة لا يزولُ!

# لم أكن معي

محدِّقاً إلى السقف، واضعاً يدي على خدِّي، كمن يتلصَّص على فكرة بيضاء، أو يتربَّص بإشراقة وحي. أَنْتَبِهُ بعد ساعات إلى أَنني لم أكن هناك في السَقف ولا هنا على المقعد، ولم أُفكر بشيء. كنت مستغرقاً في اللا شيء... في الفراغ الكلي الكامل، منفصلاً عن وجودي، جاراً لعَدَمٍ غيرِ متطفِّل، وخالياً من الألم. لم أحزن ولم أفرح، فلا شأن للّاشيء بالعاطفة، ولا شأن له بالزمن. لم توقظني يَدُ ذكرى واحدة من غيبوبة الحواس. ولم توقظني خشيةُ

الأقدار من نسيان الغد. إذ كنت، لسبب ما، متأكداً من أَنني سأحيا إلى الغد. لم أسمع صوت المطر يكسِّر رائحةَ الهواء في الخارج، ولا النايات تحمل الداخل وترحل. كنت لا شيء في حضرة اللا شيء. وكنت هادئاً، آمناً، مطمئناً. فما أجمل أن يكون المرء لا شيء، مرة واحدة، مرة واحدة فقط ... لا أكثر!

# وجوه الحقيقة

ألحقيقةُ أُنثى مجازيّةٌ
حين يختلط الماءُ والنارُ
في شكلها

والحقيقةُ نسبيّةٌ
حين يختلط الدمُ بالدمِ
في ليلها

والحقيقةُ بيضاءُ ناصعةٌ
حين تمشي الضحيّةُ

مبتورةَ القَدَمَيْنِ
على مهلها

و«الحقيقةُ شخصيَّةٌ»
في القصيدةِ
لا هِيَ ما هِيَ
أو عكسها
إنها ما تقطَّر من ظلِّها!

# كما لو كان نائماً

صحا من النوم دفعةً واحدة. فتح النافذة على ضوء فاتر وسماء صافية وهواء معافى. تحسَّس جسده، عضواً عضواً، فوجده سليماً. نظر إلى الوسادة ولم يرَ شعراً تساقط في الليل. نظر إلى الملاءة ولم يرَ دماً. فتح جهاز الترانزستور ولم يسمع خبراً عن قتلى جدد في العراق وغزة وأفغانستان. ظنَّ أنه نائم. فَرَكَ جفنيه أمام المرآة وتعرَّف إلى وجهه بسهولة. هتف: أنا حيّ. مشى إلى

المطبخ لإعداد القهوة. وضع ملعقةً من العسل في كأس الحليب الخالي من الدَّسَم. رأى على الشرفة كناريّاً زائراً يقف على حوض زهور نسي أن يسقيها. قال للكناريّ: صباح الخير، ونثر حوله فتات خبز. طار الكناريّ وحطَّ على فَنَنِ شجيرة وغنّى. مرة أخرى، ظن أنه نائم. نظر إلى المرآة ثانية وقال: أنا هو. استمع إلى نشرة أخبار جديدة. لا قتلى جدداً في أي مكان. فرح بهذا الصباح الشاذ. قاده الفرحُ إلى طاولة الكتابة وفي باله سطر واحد: «أنا حيّ على الرغم من أنني لا أشعر بالألم». كان ممتلئاً بشغف الإنشاد لصفاءٍ بِلَّوْريّ هبط عليه من مكان بعيد: من مكانه هذا! وحين جلس إلى طاولة الكتابة وجد السطر مكتوباً على ورقة بيضاء: «أنا حيٌّ على الرغم من أنني لا أشعر بالألم». لم يظن هذه المرة أنه نائم. كان متأكداً من ذلك!

# موسيقى مرئيّة

وأَنا أستمع إلى الموسيقى، تنفتح حولي حدائق، فتصير النغمةُ زهرةً أسمعها بعينيّ. للصوت صورة، وللصورة صوت متدرِّج متموِّج ... أَبعد من مجاز أدبي. يَخْرُجُ القرنفلُ من أحواضه، وينتشر على طاولات المطاعم الراقية لتعويض الغريب عن خسارة منسية، أو للإمعان في تدريب المُنْتَظِرِ على مفاجآت القادم. وليس على النرجس من حَرَجٍ إن أطال الاستماع إلى أُغنية الفرح في الماء، وظنَّها أُغنيةَ مديحه. أَمَّا

الزنبق الأبيض، إذا اتسع الصالون لرائحته الشاسعة اللاذعة، فإن خواطره تُضَلِّلني، على عكس البنفسج الذي يوقفني على تقاطع صوتين يتداخلان ويذوبان في تشابه الدموع بين عرس وجنازة ... وعلى عكس شقائق النعمان المكتفية بغناء الهامش الفسيح على سفوح الرَعَويَّات. كل هذا لأقول: إن الوردة الحمراء موسيقى مرئية. وإن الياسمين رسالة حنين من لا أَحد إلى لا أحد!

# الطريق إلى «أين»

**[إلى سركون بولص]**

أَلطريقُ طويلٌ إلى أَين؟ مرتفعاتٌ
ومنخفضاتٌ. نهارٌ وليلٌ على الجانبين.
شتاءٌ قصير وصيف طويل. نخيلٌ
وسروٌ، وعبّاد شمسٍ على الجانبين.
مَحَطّاتُ كازٍ، مقاهٍ، ومستوصفاتٌ،
وشرطةُ سير على الجانبين. وسجنٌ
صغير، ودكّانُ تبغ وشاي، ومدرسةٌ
للبنين، وأقبيةٌ للبنات، وأَجهزةٌ
لقياس المُناخ، ولافتةٌ للأجانب: أهلاً

بكم في الطريق إلى أين؟ مرتفعات
ومنخفضات. وآثار مَوْتى رأوا موتهم
واقفاً في الطريق، فألقوا عليه التحيَّة.
قال: إلى أين؟ قالوا: إلى «أَين»!
نمشي كأنَّا سوانا. كأنَّ هناك | هنا
بين بين. كأن الطريق هو الهدف
اللانهائيُّ، لكنْ إلى أين نمضي، ومن
أين نحن إذن؟ نحن سُكَّان هذا
الطريق الطويل إلى هدف يحمل اسماً
وحيداً: إلى «أين»؟

# فكاهة الخلود

للمقابر هَيْبَةُ الهواء وسَطْوَةُ الهباء. تُشَيِّع صديقك ممدوح، وتنتظر دورك ... تنقلك روائحُ الزهور الذابلة وحفيف الأشجار إلى البعيد ... إلى ما وراء الشيء ... إلى عنوانك الأخير في ناحية من نواحي العدم. لكنك تفكِّر في ما هو أَبسط: أَلقبورُ مراتب. فمنها ما يبدو لك أنه راحة النائم. ومنها ما يحرم النائم من التطلُّع إلى سمائه المدفونة. ومنها، كالمحاذية لساحة التروكاديرو في باريس، ما يجعل النائم جزءاً من وتيرة

الحياة. فهو قريب من المقاهي والمتاحف ومواعيد الأحياء. الحياةُ في متناول قبره الرخامي. وحوله مِنْ تَنَوُّع الزهر والشجر والطير والبشر ما يُغْنيه عن الخروج إلى نزهة، بعدما أنفقَ مُدَّخَراته لامتلاك خُصُوصيّةِ هذا العنوان الدائم. ومن القبور ما يجعل العدم مادة مرئية، كتلك القبور المرمية في الصحراء بعيداً عن الشجر والماء. لا أَنيس للنائم الذي يحترق في حرّ الصيف ويتجمد من البرد في الشتاء. كأنه يواصل الموت بلا نهاية، حيث يخلو الموت من استعارة النوم. لكن الذين يشرفون على تشييد قبورهم، وتأثيثها بصُوَرهم، لا يُفَكِّرون براحة النوم قريباً من صداقة الأحياء، إنما يفكرون بتدريب التاريخ على القراءة. ويفكرون بما هو أَصعب: برشوة الخلود. دون أن يعلموا أن الخلود لا يزور القبور. وأَنه يحبُّ الفكاهة!

# اللامبالي

لا يُبالي بشيء. إذا قطعوا الماءَ
عن بيته قال: لا بأس! إن الشتاء
قريبٌ. وإن أَوقفوا ساعةَ الكهرباء
تثاءَبَ: لا بأس، فالشمسُ تكفي.
وإن هدَّدوهُ بتخفيض راتبه قال: لا
بأس! سوف أَصوم عن الخمر
والتبغ شهراً. وإن أَخذوهُ إلى السجن
قال: ولا بأس، أَخلو قليلاً إلى النفس
في صحبة الذكريات
وإن أرجعوهُ إلى بيته قال:

لا بأس! فالبيتُ بيتي.

وقلت له، مرة، غاضباً: كيف تحيا غداً؟
قال: لا شأن لي بغدي. إنه فكرةٌ
لا تراودني. وأنا هكذا هكذا: لن
يغيِّرني أيُّ شيء، كما لم أُغيِّرْ أنا
أيَّ شيء ... فلا تحجب الشمس عني!
فقلتُ له: لستُ اسكندر المتعالي
ولست ديوجين
فقال: ولكنَّ في اللامبالاة فلسفةً،
إنها صِفَةٌ من صفات الأَملْ!

# اللوحة والإطار

إذا انكسر إطارُ اللوحة، بسبب هزة أرضيّة خفيفة، تحملُ اللوحةَ إلى صانع أُطُرٍ ماهر، فيضع لها إطاراً رُبَّما أَجمل. أما إذا تشوّهت اللوحة، بسبب خلل فنيّ أصليّ، وبقي إطارها سليماً، فلن تحتاج إليه إلّا إذا نقص الحطب في المدفأة. كذلك هي الفكرة: إذا انكسر إطارها وجدتَ لها إطاراً أقوى وأصلب. أمَّا إذا انكسرت الفكرة، فلن يكون إطارها السليم غيرَ ذكرى حزينة، تحتفظ بها كما

يحتفظ راعٍ خائب بجَرَس كبش من قطيعه،
افترسته الذئاب!

# ثلج

تكثَّفَ الهواءُ الأبيض، وتباطأ وانتشر كالقطن المنفوش في الفضاء. وحين لامس جَسَدَ الليل أضاءه من كل ناحية. ثلج. انقطع التيار الكهربائي، فاعتمدت على ضوء الثلج لأهتدي إلى الممر، الفاصل الموسيقي، بين جدارين، فإلى الغرفة المجاورة لشجرات النخيل الست الواقفات كراهبات على كتف الوادي. فَرَحٌ شِبْهُ ميتافيزيقي يأتيني من كُلِّ ما هو خارجي، وأَشكر الريح التي جاءت بالثلج من أقاليم لا تصل إليها

إلّا الروح. لو كنتُ غيري لاجتهدت في وصف الثلج. لكني إذ أنخطفُ في هذا العشب الكونيّ الأبيضِ، أتخفف من نفسي فلا أكون أنا، ولا أكون غيري، فكلانا ضيفان على جوهر أبيض، مرئيّ وواسع التأويل. وحين عاد التيار الكهربائي، أطفأت الضوء وبقيت واقفاً أمام النافذة لأرى كم أنا هناك... طيفاً في ما وراء الثلج!

# عَدْوَى

قال لي، بعدما كسر الكأسَ:

لا تَصِفِ الشعرَ، يا صاحبي، بالجميل

ولا بالقويّ،

فليس هنالك شعر قويّ وشعر جميل

هنالك شعر يُصيبكَ، سرّاً

بعَدْوى الكتابة والانفصام، فتهذي

وتخرجُ ذاتُكَ منك إلى غيرها ... وتقول:

أنا هُوَ هذا وهذا، ولستُ أنا. وتطيل

التأمُّل في الكلمات. وحين تجس لها

نبضها، تشرئبُّ وتهمس في أُذنيك:

اقترب وابتعد، واغترب واتّحد. ويسيل
حليب من الليل. تشعر أنك طفلٌ
سيُولَدُ عما قليل!

# حوض خزامى

محتشمةً متكتّمةً، على طِيبك، كحوض خُزَامى، تجلسين قبالة مطالعي. وأَصابعي تحكُّ أصابعي، فيسقط فنجان قهوتي — ذريعتي وخديعتي، لتقرِّبي طِيبَكِ مني، وألُمَّهُ مع شظايا الهال ... فلا يصل. لأن رائحة الخزامى لا تنتقل من خِدْرها الحذر إلى المُنْتَظِر سخاءَ المخفيّ. أكثرُ من حاسة فاقدةِ الصبر تشرئبُّ إلى ما سيهبُّ من جهتك المتقشّفة المنصرفة إلى صون بكارة الرائحة الملتفّة بأوراق الكثافة. أَدنو

منك كمُقْبِلٍ على مغامرة، كمدبر عن خوفه.
أمدّ يديَّ إلى حوض الخزامى. أفركها وأَحضنها
وأَشمّها وأَضمّها، ولا تقولين شيئاً. كأنك
حقاً خزامى... تؤخذ رائحتها باليدين!

# أَكثر وأَقلّ

حتى لو لم تكوني ما أَنتِ عليه من حضور باهر، سأكون أنا ما أنا عليه من غياب فيك ... باطنٍ وظاهر. شفّافٌ حضورك بلّوري أرى ما وراءه من حدائق، فأنخطف إلى متاهات عليا لا يبلغها خيال تبهجه سعة المجاز ويُخرِجُهُ فقرُ الكلام المتداول. أَقول ما أقول لك بلغة تفتقر إلى كثافة العسل وخفَّة الفراشة... في حضرة هذا الممكن المتمكن من رفع المصادفة إلى مرتبة الإعجاز. فإلى أين يأخذنا صمتك المضفي على الكلام الغامض

إغـواءَ الـتـوريـة؟ كـأنـي لم أكـتـب مـن قـبـل، ولم أحـفـظ مـا كـتـبـتُ لـكِ في سـرِّي. وشـفَّـافٌ حـضـورك، فـلا أدري إن كـانـت روحـك تـسـكـن جـسـدك، أم أن جـسـدك يـلـبـس روحـك ويـشـعّ لـؤلـؤة في عـتـمـتـي. يـخـتـلـط عـلـيَّ الـشـكـل والجوهـر، فـأرى الـشـكـل جـوهـراً، والجوهـر شـكـل الـكـمـال. وأبـاريـك في الـصـمـت لـئـلا تـزلَّ بـي كـلـمـة فـأسـقـط عـلـى مـا كـنـتـهُ قـبـلـك مـن ارتجـالٍ مُـتَـعَـثِّـر. لا، لـسـتُ شـاعـراً يـنـتـظـر قـصـيـدتـه في مـا تـنـثـريـن مـن إيمـاءات، أنـت وأنـا ـ إن كـان لـنـا أَن نجـتـمـع في عـبـارة واحـدة كـمـا نـحـن هـنـا في غرفة واحدة ـ ضيفان خفيفان على ما يسبق المعنى من غيوم، ممتلئان بحنين الطير إلى شجر الليل، بلا فكرة عن غد لا يعدنا بغير الأمل. فأحضر وتغيبين. وأنـظـر إلـى غـيـابـك يُـهـيـل عـلـيَّ سـمـاء مـا. حـتـى لـو لم تـكـونـي مـا أنـت عـلـيـه مـن غـيـاب. سـأكـون أنـا مـا أنـا عـلـيـه مـن حـضـور. كـأنـك مـعـي. كـأنـي في حـاجـة أكـثـر إلـى مـا هـو أقـلّ!

# أَغبطُ كُلَّ ما حولكِ

أغبطُ حواسي. للهواء لون الغاردينيا ...
ولرائحتك على كتفيّ أقواسُ نَصْرٍ وَضَحِك.
أَغبط الخناجرَ المسالمةَ النائمةَ في أَغمادها
أمامك على المنضدة، في انتظار إشارة
منكِ لقتلي. أَغبط المزهرية، تستغني عن
وردها الأصفر بما تغدقين عليها من قرمز
الشفتين الجائعتين إلى جُوعي. وأَغبط اللوحة
المحدقة إليك بضراعة: انظري إليَّ أَطول
لأكمل ما ينقصني من بحيرات وبساتين كرز.
وأُغبط أعشاب السجّادة تشرئبُّ إلى حجلة

تهبط إليها من عل، وإلى حجلة تستريح على الركبة، فيسخن رخام الغرفة وخيالي. وأُغبط المكتبة المضطربة المكتئبة لخلوّها من كتاب شهواني في مديح ربوتين عاجيتين صغيرتين مكشوفتين أمامها على هياج الجيتارات، ومغلقتين بموجة حرير يتنهد، وأُغبط أصابعي تلتقط ما يفيض عن حاجة يديك إلى حوار الضوء والظل وحركة الملعقة في فنجان الشاي، وتحريك الملح في جسد يحنّ إلى عاصفة لتأجيج نار النشيد: يا هذه الأشياء لُمِّيني وضُمِّيني لأغبط ذكرياتي عنك في ما بعد. وأَغبط لساني الذي يناديك باسمك بحرص مَنْ يحمل أربع كؤوس كريستال بيدٍ واحدة. أتذوَّق حروف اسمك، حرفاً حرفاً، كفواكه موسيقية. ولا أشرب الماء معها لأحافظ على مذاق الدُّراق وعلى عطش حواسي ... وأغبط خيالي يحتضنك ويسكنك ويقبّلك ويدلِّلُك ويطويك ويرخيك ويدنيك ويُقْصيك ويرفعك وينزلك، ويخضعك ويخضع لك، ويفعل ما لا أَفعل!

# قِلّي كوكباً

هل كُلُّ هذا أَنتِ؟
غامضةً وواضحة
وحاضرةً وغائبةً معاً...
عيناكِ ليلٌ حالكٌ ... ويُضيئني
ويداك باردتان ترتجفان
لكنْ، تُوقدان الجمرَ في جسدي
وصوتك نغمةٌ مائيَّةٌ ... وتُذِيبني في الكأس
أنتِ كثيفةٌ وشفيفةٌ، وعصيّةٌ وأَليفةٌ
عذراءُ، أُمٌّ لابنتين:
قصيدتي

وقصيدةٍ أودى بصاحبها خيالٌ قاصرٌ!
هل كل هذا أنت؟
صيفٌ في الشتاء، وفي الخريف ربيعُ نفسكِ
تكبرين وتصغرين على وتيرة نايك السحريّ
يخضرُّ الهواءُ على مهبّك
يضحكُ الماءُ البعيدُ إذا نظرتِ إلى السحاب
ويفرحُ الحَجَرُ الحزينُ إذا مررتِ بكعبك العالي ...
أَهذا ... كُلُّ هذا أنت؟
قِلّي كوكباً أو كوكبين لكي أصدّقَ
أنك امرأة تُجَسُّ،
ولستِ موسيقى تكسّرني كحبة بندقٍ
قلّي قليلاً، واستقلّي عن مجازك
كي أضمّكِ من جهاتك
ما عدا الجهة التي أشرعتها للريح ...

# مواعيد سرّية

أوصدتُ الباب ووضعتُ المفتاح في جيبي. أغلقتُ النوافذ وأسدلت الستائر. مسحتُ الغبار عن المرآة والمنضدة ونظارتي، وشَذّبت زهور المزهرية، واخترتُ ليليات شوپان، ونزعت سلك الهاتف لئلّا تحرجني صديقتي بسؤال عما أفعل الليلة. فكيف أقول لها إني على موعد سري مع نفسي؟ هجستُ بأن الليل، كالعالم، لم يعد مكاناً آمناً ... وانتظرتُ بلا قلق موعدي. صببتُ نبيذاً أحمر في كأسين. وفكَّرتُ بلا تركيز في ما

سأقول لزائرتي ـ نفسي. وَحَدَسْتُ بطريقتها الخاصة في تعريتي ونزع أَقنعتي، وبسؤالها الساحر: منذ متى لم نلتق؟ سأقول لها: منذ امتلأتِ بي وامتلأتُ بك، ولجأتِ إلى صورتي عنك، ولجأتُ إلى صورتك عني. ستسألني: لماذا إذن لم تنسَ أن تنساني؟ سأقول لها: لئلا تسرقني المصادفات من الممكنات في طريقي إلى مجهولك. ستقول لي: لا أفهمك. سأقول: ولا أنا. لم يعد العالم مكاناً آمناً، أحتاج إليك خلاصاً ... لماذا تأخَّرْتِ عن الموعد؟ ستسألني: أي موعد؟ سأقول لها: هذا الموعد ـ هل نسيتِ؟ لكنني لا أسمع جواباً، وأَتطلع إلى كأسها فلا أجدها. شربت كأسي وثملت وقلت: أَنا وحدي في ثيابي. أَعدت تشغيل الهاتف، واتصلت بصديقتي متوسلاً: تعالي إليَّ. فقالت: لا أستطيع الخروج من البيت، لأنني على موعد سِرِّيّ مع ... نفسي!

# قالت له

«الليل تاريخُ الحنين، وأَنتِ لَيْـلي» ــ
قلتَ لي، وتَرَكْتَني
وتركتَ لي لَيْـلي ولَيْـلَكَ باردين ...
وسوف يوجعني الشتاءُ وذكرياتُكَ
سوف يوجعك الهواءُ معطراً بزنابقي
لا بأس!
سوف أُحبُّ أوَّل عابرٍ
يبكي على امرأةٍ رَمَتْهُ إلى الهباء كما فعلتَ
سنعتني [أنا والغريبُ] بلَيْلنا ونضيئه.
سنؤنِّث الأَبد الصغير... سنلتقي

[أنا والغريبُ] سريرنا وشعورنا بعنايةٍ.

ولربما نتلو معاً [أنا والغريب]

قصيدة الحب التي أَهْدَيْتَني:

«الليلُ تاريخُ الحنين

وأَنتِ ليلي»!

# عَطْس

الإحباط هو ما يلي الإحساس الزائف بالسعادة التي تشبه العطس بسبب رائحة البنزين. أَسعدني أني عطست، لكن ذلك لا يصلح لاختراع ذكرى أستعيدها. وحين أسأل: ما هي السعادة؟ أتفلسف بلا فلسفة. ولا أُحاول أَن أَتصوّف بحثاً عنها في الماوراء. قد أجدها مصادفة، وقد لا أجدها. لكني لا أبحث عنها بقدر ما أبحث عن جواب يُعزِّيني ويُسَلِّيني. وكلما تساءلت: هل

أنا الليلةَ سعيد؟ خجلت من سذاجتي، وفتحت النافذة لأرى أحوال السماء، لأن البرد أيضاً يجعلني أَعطس، ولأن النجوم كلمات في طريقها إليَّ، هكذا تأتي هنيهة السعادة من خارجي. فالفرح ليس أكثر من ورقة يانصيب رابحة لا تلزمنا بغير تقديم الشكر للمصادفة. هل حياتي هي تغاضي العدم عني الآن؟ حين كتبت هذا السؤال، انقطع التيار الكهربائي، وشعرت بالبرد دون أن أعطس!

# مديحُ النبيذ

أَتأمَّل النبيذ في الكأس قبل أَن أذوقه /
أتْرُكُهُ يتنفَّس الهواء الذي حُرم منه سنين.
إخْتَنَقَ ليحمي الخصائص. وتخمَّر في شُبَاته،
وٱدَّخَر الصيفَ لي وذاكرةَ العنب /.
أترُكُهُ ينتقي لونه المُسَمَّى، خطأً، أحمر.
فهو مزيج من قُرْمُزيّ تشرَّب غيمة خفيفة
السواد. لون لا لون له إلّا اسمه:
نبيذيّ، لنرتاح من مراوغة الوصف ./
وأترُكُهُ يحترم رائحته، الرائحةَ المتكبرة
المتعالية كالمُحْصَنَات من النساء. إن شئتَ

أن تَشُمَّها فلا تأتي هي إليك. عليك أنت أن تتأكَّد من طهارة يدك وخلوِّها من العطر، ثم تمدَّها بلينٍ عاطفيّ إلى الكأس كأنها تقترب من نَهْد. تقرِّبُ الكأس من أَنفك بأناة نحلة، فتبعثرك رائحةٌ عميقة سريّة: رائحةُ اللون التي تُدْخِلُكَ إلى أَدْيِرَةٍ قديمة ./ وأَتركه يستجمع خواطر مذاقه إلى أن نكون، أنا وهو، جاهِزَيْن عطشاً لاستقبالِ وَحْيٍ بالفم. لا أَتعجَّل ولا أَتمهل، فكلاهما كسر في إيقاع المتعة. أُقرِّبُ الكأس من شفتيّ بخفر المتسوِّل قبلةً أولى من امرأةٍ غامضة العواطف. أرتشف جرعة خفيفة. وأَنظر إلى أَعلى بعينين نصف مغمضتين إلى أن يسري سُلافُ نشوةٍ في شراييني. وتنفتح شهيَّتي على ما يليق بالنبيذ من حاشِيةٍ ملكية. هو النبيذ يرفعني إلى مرتبة أعلى، لا هي سماوية، ولا هي أرضية. ويقنعني بأنَّ في وسعي أن أكون شاعراً، ولو لمرة واحدة!

# على أَعالي السرو

قالت له: هل أنتَ مَنْ كَتَبَ القصيدةَ؟

قال: لا أدري. حلمتُ بأَنني حيٌّ

فقالت: ثم ماذا؟

قال: صدّقتُ المنام، وَطِرْتُ من فَرَحي

إليكِ إليكِ

قالت: ثم ماذا؟

قال: حين نطقت باسمك ردَّد الوادي

الصدى، واغرورقتْ عيناي بالرؤيا

فقالت: ثم ماذا؟

قال: لم أحلم بما هو أكثرُ

المرآةُ صافية أمامي. أنت أنت
كما رأيتك حالماً. وأنا أنا

قالت: وماذا بعد؟
قال لها: الحياة قصيرةٌ وجميلةٌ ...
هل أنتِ مَنْ كَتَبَتْ قصيدتيَ الأخيرةَ لي؟
فقالت: لا. أَنا شَبَحٌ
فقال: أنا كذلك، ربما تتسامَرُ الأشباحُ
كالأرواح
قالت: أَين نحن الآن؟
قال: على أعالي السَرْو...!

# وجهة نظر

ألفارق بين النرجس وعبّاد الشمس هو الفرق بين وجهتي نظر: الأول ينظر إلى صورته في الماء، ويقول: لا أَنا إلَّا أنا. والثاني ينظر إلى الشمس ويقول: ما أنا إلَّا ما أَعبد.

وفي الليل، يضيق الفارق، ويتسع التأويل!

# رصاصة الرحمة

أَغار من الحصان: فإذا انكسرتْ ساقه وأحسّ بإهانة العجز عن الكر والفر في الريح ... عالجوه برصاصة الرحمة. وأَنا، إذا انكَسر شيء فيّ، جسديٌّ أو معنوي، أُوصي بالبحث عن قاتل ماهر، حتى لو كان من أَعدائي. سأدفع له أَجرَهُ وثمنَ الرصاصة. سأُقبِّلُ يده والمسدَّس. وإذا كنتُ قادراً على الكتابة، مَدَحْتُهُ بقصيدة عصماء، يختار هو وزنها والقافية!

# حياء

بحياء، أَنظر إلى طاسة الشحّاذ.
بحياء، أستمع إلى أغنية قديمة من أسطوانة مشروخة.
بحياء، أشمُّ عطر وردة ليست لي.
بحياء، أتذوَّق طعم التوت البريّ.
بحياء، أحكُّ أَحد أعضائي.
بحياء، أستعمل حواسي الخمس.
بحياء، أُطيع حاستي السادسة.
بحياء، أَحيا، كما لو كنتُ ضيفاً على غجريّ يتأهَّبُ للرحيل.

# الكمال كفاءة النقصان

أَلوقتُ طار، ولم أَطِرْ مَعَهُ ...

توقَّفْ ــ قلتُ ــ لم أكمل عشائي بعد،

لم أشرب دوائي كُلَّهُ،

لم أكتب السطر الأخير من الوصيّةِ،

لم أُسدِّد أيَّ دَيْن للحياة..

وقد رأَتْني جائعاً قرب السياج

فأَطْعَمَتْني حَبَّةً من تينها ...

ولقد رأتني عارياً تحت السماء

فألبستني غيمةً من قطنها ...

ولقد رأتني نائماً فوق الرصيف

فأَسكنتني نجمةً في صدرها ...
قالت: تعَلَّمْني تَجِدْني في انتظارِكَ!
قلت: شكراً للحياة، فإنها هِبَـةٌ وموهبةٌ ...
تَعَلَّمتُ الحياة بما استطعت من الشقاء
وعلَّمتني كيف أَنساها لأَحياها ...

وقال الموت لي مُتَطفِّلاً:
لا تَنْسَني فأنا أخوها،
قلت: أُمُّكُما سؤالٌ غامض لا شأن لي فيه ...
وطار الموتُ من لُغتي إلى أَشغالِهِ.

تحيا الحياةُ ــ هَتَفْتُ حين وجدتُها عفويَّـةً
فطريَّةً، تلهو وتضحك للهواء. تُحبُّنا ونحبّـها ...
وتكون قاسيةً وناعمةً، وسيِّدةً وجاريةً ..
ولا تبكي على أَحد. فلا وقتٌ لديها.
تدفن الموتى على عجل، وترقص مثل غانيةٍ
وتنقص ثم تكتمل. الكمالُ كفاءةُ النقصانِ
والذكرى هي النسيانُ مرئيّاً ...

ولكني لعبتُ مع الحياة كأنها كُرَةٌ ولُعْبَـة يانصيبٍ...
لم أفكِّر مرّةً باللغز: ما هي؟
كيف أملأها وتملأني ــ سألتُ وقد
رأيتُ الموت يتركني على مهلي ... لأسأل
وانتظرت الوقت. قلت: غداً سأمعن في السؤال
عن الحياة. ولم أَجد وقتاً
لأن الوقت راوغني وغافلني ... وطار!

# صبَّار

أَلصَّبَّارُ الذي يسيِّج مداخل القرى كان حارساً مخلصاً للعلامات. حين كنا أولاداً، قبل دقائق، أرشَدَنَا الصبَّارُ إلى المسالك. لذلك أطلنا السهر خارج البيوت، برفقة بنات آوى والنجوم. كذلك خبَّأنا مسروقاتنا الصغيرة من بلح وتين مجفّف ودفاتر في مخدعه الشائك. وحين كبرنا دون أَن ندري كيف ومتى حدث ذلك، أَغوتنا أزهارُهُ الصفراءُ بملاحقة البنات على طريق النبع الضاحك، وتباهينا بما على أيدينا من شوك.

ولما انطفأت الزهرة ونتأت الثمرة، كان الصَّبَّار عاجزاً عن صد سلاح الجيش الفاتك. لكنه ظلّ حارساً مخلصاً للعلامات: هنالك، خلف الصبار منازل موءودة وممالك، ممالك من ذكرى، وحياة تنتظر شاعراً لا يحبُّ الوقوف على الأطلال، إلَّا إذا اقتضت القصيدة ذلك!

# في الساحة الخالية

ساحةٌ خالية. ذباب وظهيرة وشجرة تينٍ لا تؤنس أحداً. ينبح كلب من بعيد، وأنا أَقترب من الساحة الخالية. أفكِّر في ما وراءها، وفي ما وراء قصيدة يكتبها شاعر محبط عن رهبة الساحة الخالية: «أنا والكلام الذي قُلْتُهُ، والكلام الذي لم أَقله، وصلنا إلى ساحة خالية». هناك يرنُّ الجفافُ كقطعةٍ معدنية. وتُحْدِثُ خطاك صوتاً مشابهاً «كأنك غيرك» ... يتبعه صدى هواء ناشف «كأني

هو». وحين تكون الساحةُ خاليةً تمتدُّ الخواطرُ إلى ما قبل: إلى حياةٍ كانت هنا. جاءت من أزقَّةٍ ضيّقة، لتتشمَّس أو تتنفَّس أو لتعرض براهينها على الممكنات. لم أسأل: من أَين جئتُ؟ بل سألتُ: لماذا وصلتُ إلى الساحة الخالية؟. خفت. وحاولت الرجوع إلى أيِّ زقاق ضيِّق، فتحوَّلَت الأزقةُ كُلُّها أَفاعي. أَغمضتُ عينيّ وَفَرَكْتُهُما وفتحتهما لأرى كابوسي أمامي. لم يكن كابوساً. كان واقعاً كابوسياً. لكن الساحة الخالية اتسعت، وشجرة التين ارتفعت، والظهيرة سطعت، وتكاثر الذباب. أما نباح الكلاب فقد آنسني من بعيد، ثمَّةَ حياة هناك. ولسبب ما، غامض، تذكرت الكلام الذي لم أَقله ... تذكرته ونسيته.

# إِجازة قصيرة

صدَّقتُ أَني مِتُّ يوم السبت،
قُلْتُ: عليَّ أن أوصي بشيء ما
فلم أَعثر على شيء ...
وقلتُ: عليَّ أن أدعو صديقاً ما
لأخبره بأني مِتُّ
لكن لم أَجد أَحداً ...
وقلتُ: عليَّ أَن أَمضي إلى قبري
لأملأه، فلم أَجد الطريقَ
وظلَّ قبري خالياً مني
وقلتُ: عليَّ واجبُ أن أؤدّي واجبي:

أن أكتب السطرَ الأخيرَ على الظلال
فسال منها الماءُ فوق الحرفِ ...
قلتُ: عليَّ أن آتي بفعلٍ ما
هنا، والآن
لكنْ لم أَجد عملاً يليق بميِّتٍ

فصرختُ: هذا الموت لا معنى له.
عَبَثٌ وفوضى في الحواس،
ولن أُصدِّق أنني قد متُّ موتاً كاملاً
فلربما أنا بين بين
وربما أنا ميِّت متقاعدٌ
يقضي إجازته القصيرة في الحياة!

# الشهرة

أَلشهرةُ فضيحةُ الكائن المحرومِ من الأسرار. تُغَيِّرُ مشية صاحبها بين سريعة وبطيئة، لتلائم ما يريد لها المُشَاهِد من ثقة بصلابة الأرض. على الهامة ألَّا ترتفع كثيراً لتبقى السماءُ وجهةَ نظرٍ عامة. وعلى القامة أن تنحني قليلاً لتحية المارة والطيور التي قد تحلِّق على ارتفاع منخفض. اليد اليسرى، حاملةُ الساعة المُخْتَلَفُ على معدنها بين ذَهَبِيّ وماسيّ، تندسُّ في جيب البنطلون ذي اللون الرمادي المحايد.

واليد اليمنى تضبط حركتها بالقبض على كتاب أو جريدة. لون المعطف كُحْليّ .. لأن أي لون آخر يُهَيِّجُ الشائعات. الشهرة، وهي عُرْيُ الكائن، تقتضي حماية ما تحت الثياب من الكاميرات السرية الملأى بالصور قبل التصوير. والشهرة تغري النميمة بالارتفاع إلى مستوى الجريمة، بارتكاب اغتيال معنوي لا يعاقب عليه القانون. والشهرةُ عقوبةٌ على اللّاخطأ، تُمْلي على صاحبها ارتداء قناع الترضية ليبتسم وفق الطلب والوقوف الطويل مع الواقفين حتى لو كان حاقناً. وتملي على لسانه المفردات الجاهزات الخاويات من المعنى والقصد. الشهرة عدوّ السليقة والفطرة والبداهة، واختلاف ما يقال عما يجب أن يقال. وتحويل الواحد إلى اثنين يتحاوران في غرفة مغلقة النوافذ: من منا يراوغ نصفه الثاني ... أنا أم أنت؟. ألشهرة ضُرَّةُ العفوي ... وسجنٌ كثير النوافذ، حَسَنُ الإضاءة، والمراقبة!

## لو كنتُ صيّاداً

لو كُنْتُ صيّاداً

لأعطيتُ الغزالة فرصةً أُولى

وثانيةً

وثالثةً

وعاشرةً،

لتغفو ...

واكتفيتُ بحصَّتي منها:

سلامِ النفس تحت نُعاسِها.

أَنا قادرٌ لكنني أَعفو

وأَصفو

مثل ماء النبع قرب كِناسها.

لو كنتُ صيّاداً
لآخيتُ الغزالة ...
«لا تخافي البندقية
يا شقيقتيَ الشقيَّة»
واستمعنا، آمِنَيْن، إلى
عواء الذئب في حقل بعيد!

# كابوس

إذ أَصحو فجراً يمرض نهاري. لا يأتيني الكابوس من الليل، بل من فجر فاجر، كما لو أن حزناً ميتافيزيقياً يجرني إلى غابة كُحْلِيَّة: هناك مُسَلَّحون مُقَنَّعُون وكاميرا. يشدون وثاقي إلى جذع نخلة عراقية ثكلى، قرب نخلة أخرى رُبط إلى جذعها جواد عربي. يسألونني عن اسمي الرباعي، فأخطىء في اسم أبي وجدِّي من وطأة الفجر. لا أرى سخريتهم المُقَنَّعة، لكني أسمعهم يتهامسون: لن نُعْدِمَهُ الآن

دَفْعةً واحدة ... فما زلنا في الفصل الأول من الرواية. نقتله بالتقسيط وعلى دفعات. وسنكتفي بإعدام الحصان. وعندما فكّوا وثاقي دَسُّوا في جيبي شريط ڤيديو، وقالوا: هذا للتدريب على التعذيب ... وأعادوني إلى البيت. حين شاهدتُ الشريط لم أَفرح بأني حيّ. حزنت لأن الحصان كان ينظر إليَّ بمزيج من الشفقة والتأنيب!

# ليل العراق طويل

**[إلى سعدي يوسف]**

ألعراقُ، العراقُ دَمٌ لا تُجَفِّفُهُ الشمسُ،
والشمسُ أَرملةُ الربّ فوق العراق. يقول
القتيلُ العراقيُّ للواقفين على الجسر: عِمْتُمْ
صباحاً، فما زلتُ حيّاً. يقولون: ما زلتَ
مَيْتاً يُفَتِّشُ عن قبره في نواحي الهديلْ

ألعراق، العراق ... وليْلُ العراق طويل.
ولا يبزغ الفجرُ إلَّا لقتلى يُصَلُّون نصف صلاةٍ
ولا يكملون السلام على أَحَدٍ ... فالمغول

يجيئون من باب قصر الخليفة في كتف النهر،
والنهر يجري جنوباً جنوباً، ويحمل أَمواتنا
الساهرين إلى أَقرباء النخيلْ

ألعراقُ، العراقُ مدافنُ مفتوحةٌ كالمدارس
مفتوحة للجميع، من الأرمنيّ إلى التركمانيّ
والعربيّ. سواسية نحن في درس علم
القيامة. لا بُدَّ من شاعر يتساءل:
بغدادُ: كم مَرّةً تخذلين الأساطير؟ كم
مرّةً تصنعين التماثيل للغد؟ كم مَرّةً
تطلبين الزواجَ من المستحيلْ؟

أَلعراقُ، العراق ... هنا يقف الأنبياءُ هنا
عاجزين عن النطق باسم السماء. فَمَنْ
يقتل الآن مَنْ في العراق؟ الضحايا شظايا
على الطرقات وفي الكلمات. وأَسماؤهم نُتَفٌ
من حروفٍ مُشَوَّهَةٍ مثل أَجسادهم. وهنا
يقف الأنبياء معاً عاجزين عن النطق باسم

السماء، وباسم القتيلْ

أَلعراقُ، العراق، فمن أَنت في حضرة الانتحار؟
أنا لا أنا في العراق. ولا أَنت أنت. وما
هو إلّا سواهُ. تخلَّى الإله عن الحائرين
فمن نحن؟ مَنْ نحن. لسنا سوى خبر
في القصيدة: لَيْلُ العراق طويلٌ طويلْ!

# في قرطبة

أبواب قرطبة الخشبية لا تدعوني إلى الدخول لإلقاء تحيَّةٍ دِمَشْقِيَّةٍ على نافورة وياسمينة. أمشي في الأزقة الضيّقة في نهارٍ ربيعيّ مُشْمسٍ سَلِس. أَمشي خفيفاً كأني ضيف على ذاتي وذكرياتي، كأني لست قطعة أَثريّةً يتداولها السُيَّاح. لا أُربت على كتف ماضيَّ بفرحٍ يتيم، كما تتوقَّعُ مني قصيدةٌ مُرْجَأَة. ولا أخاف الحنين منذ أغلقت عليه حقيبة السفر، بل أخاف الغد الراكضَ أمامي

بخطى إلكترونية. كلما تطفَّلتُ عليه نَهَرَني قائلاً: إبحثْ عن الحاضر. لكنَّ الشعراء كثر في قرطبة. أجانب وأندلسيون. يتحدثون عن ماضي العرب وعن مستقبل الشعر. وفي حديقةٍ، قليلةِ الشأن والشجر، أرى نصباً بحجم الكفّ لابن زيدون وولَّادة، فأسأل أحد شعرائي المفضّلين، ديريك ولكوت، إن كان يعرف شيئاً عن الشعر العربي، فلا يأسف عندما يقول: كلا.. لا شيء. ومع ذلك، بقينا معاً ثلاثة أيام لم نتوقف فيها عن الضحك والسخرية من الشعر والشعراء الذين وصفهم بأنهم لصوص استعارات ... سألني: كم استعارة سَرَقْتَ، فأخفقتُ في الجواب. وتبارَيْنا في مغازلة القرطبيات، وسألني: إذا أُعجبت بامرأة فهل تتقدَّم منها؟ قلت: على قدر جمالها تكون جرأتي ... وأنت؟ قال: أمَّا أنا، فإذا أَعجبتني امرأة جاءت هي إليّ. قلت: لأنك ملك وٱبن ... ما لا أعرف. وكانت زوجته الثالثة تضحك.

وفي قرطبة، وقفتُ أمام بوابة بيت خشبية
وبحثت في جيبي عن مفاتيح بيتي القديم،
كما فعل نزار قباني. لم أذرف دمعة،
لأن الجرح الجديد يخفي ندبة الجرح القديم.
لكن ديريك ولكوت فاجأني بسؤال جارح:
لمن القدس؟ لكم أَم لهم؟ ...

# في مدريد

شمسٌ ورذاذٌ وربيعٌ حائر. والأشجار عتيقة وعالية في حديقة «بيت الطلبة». الممرات مرصوفة بحصى يجعل المشي عليه أَقرب إلى تدريب ساخر على رقصة فلامنكو. والظلال مثقوبة بضوء مترجرج. من على هذه التلة نطلُّ على مدريد الواسعة المنخفضة كحوض أخضر. ونجلس، أَنا والشاعر الكندي / الأميركي مارك ستراند، على مقعد خشبي لالتقاط الصور مع الطالبات والطلبة... وللتوقيع على كتبنا

المترجمة إلى الإسبانية، نتبارى في إخفاء فرح الشاعر بقارئه المجهول، غير المتوقّع ... وبسَفَرِ شعره الذي كتبه في غرفة مغلقة إلى هذه الحديقة. اقتربتْ سيدة أَنيقة مني وقالت: أنا حفيدة لوركا، فعانقْتها لأشمّ ما تسرَّب من ذراعيه إليها. وسألتها: ماذا تتذكرين منه؟ فأجابت بأنها وُلدت بعد مصرعه. قلت لها: هل تعلمين كم نحبّه؟ قالت: كل الناس تقول ذلك، فأشعر بالزهو. إنه أيقونة. وذكَّرني مدير البيت بأن هذا المكان هو أحد معالم مدريد. مَنْ لم يقرأ شعراً هنا فهو الخاسر. هنا عاش لوركا وأَلبرتي وخيمينيث وسلفادور دالي. في نهاية الندوة المشتركة طُلِب مني أن أوجِّه سؤالاً إلى مارك ستراند. فسألته: ما هي الحدود الواضحة بين الشعر والنثر؟ تلعثم كما يتلعثم الشعراء الحقيقيون أمام صعوبة التحديد. ثم قال ... وهو الذي يكتب الشعر النثري: الإيقاع الإيقاع. الشعر يُعَرَّفُ بالإيقاع.

وحين خرجنا إلى الحديقة نتمشّى على ممرّات الحصى، لم نتكلّم كثيراً لئلا نكسر إيقاع الليل على الأشجار العالية. ولا أعرف لماذا تذكرت قول نيتشه الحاذق: «الحكمة هي المعنى محروماً من الغناء»!

# عالٍ هو الجبل

يمشي على الغيم في أَحلامه، ويَرَى
ما لا يُرَى. ويظنُّ الغيمَ يابسةً ...
عالٍ هو الجَبَلُ

أعلى وأَبعد. لا شيء يُذَكِّرُهُ
باللامكان، فيمشي في هواجسِهِ
يمشي ... ولا يَصِلُ

كأنه هُوَ، أو إحدى صفات «أَنا»
وقد تقاسمها الضدان بينهما:

## أليأسُ والأمَلُ

كان الضبابُ كثيفاً في قصيدتِهِ
وكان يصعد من حلمي، فقلتُ له:
عالٍ هو الجبلُ!

# لا أَنتبه

أرى ما أَرى
دون أَن أَنتبهْ
وإذ، لا أرى ما أرى
يُوَرِّطني القلبُ بهْ
وأَحيا
كأني أنا
أو سوايَ
ولا أَنتبهْ!

# تلك الكلمة

أَعجبتْهُ كلمةْ

فَتَحَ القاموسَ،

لم يعثر عليها،

وعلى معنىً ضبابيّ لها ...

لكنها تسكنُهُ في الليل

موسيقيَّةً منسجمهْ

مع ذاتٍ مُبهَمةْ

قال: لا بُدَّ لها من شاعرٍ

ومجازٍ ما لتخضرَّ وتحمرَّ

على سطح الليالي المُعْتِمَةْ

ما هِيَ؟
وَجَدَ المعنى
وضاعتْ منه تلك الكلمةْ

# صدى

في الصدى      بئرٌ
وفي البئر      صدى
والمدى
يبدو      رماديّـاً حياديّـاً
كما لو أَنَّ حرباً لم تقع
أَو وَقَعَتْ أَمسِ،
وقد تأتي غداً ...

في الصدى      بئرٌ
وفي البئر      صدى

وأَنا أَبحث ما بينهما
عن مصدر الصوت
سدى!

# شجرة الزيتون الثانية

شجرة الزيتون لا تبكي ولا تضحك. هي سيِّدةُ السفوح المحتشمة. بظلِّها تغطّي ساقها، ولا تخلع أوراقها أمام عاصفة. تقف كأنها جالسة، وتجلس كأنها واقفة. تحيا أُختاً لأبدية أَليفة وجارةً لزمن يُعينُها على تخزين الزيت النورانيّ وعلى نسيان أسماء الغزاة، ما خلا الرومان الذين عاصروها واستعاروا بعض أغصانها لضفر الأكاليل. لم يعاملوها كأسيرة حرب، بل كجدة محترمة ينكسر السيف أمام

وقارها النبيل. في فِضَّة خضرتها المتقشّفة خَفَرُ اللون من الإفصاح، والنَظَرُ إلى ما وراء الوصف، فلا هي خضراء ولا فضيّة. هي لون السلام إذا احتاج السلام إلى فصيلة لون. لا يقول لها أَحد: كم أنت جميلة! لكنه يقول: كم أنت نبيلة وجليلة. وهي، هي التي تدرِّب الجنود على نزع البنادق، وتمرِّنهم على الحنين والتواضع: «عودوا إلى بيوتكم، وأَضيئوا بزيتي القناديل». لكن هؤلاء الجنود، هؤلاء الجنود الجدد، يحاصرونها بالجرافات ويجتثّونها من سلالة الأرض ... ينتصرون على جدّتنا التي انقلَبت وصار فرعها في الأرض وجذرها في السماء. لم تبك ولم تصرخ. إلَّا أن أَحد أحفادها ممن شاهدوا عملية الإعدام، رمى جندياً بحجر، واستشهد معها. وعندما مضى الجنود منتصرين، دفنَّاهُ هناك: في الحفرة العميقة ـ مهد الجدة. ولسبب ما، كُنَّا متأكدين من أنه سيصبح، بعد قليل، شجرة زيتون ... شجرة زيتون شائكة ... وخضراء!

# صفصافة

صفصافةٌ في ملتقى دربين: هل
جاء الشماليون؟ أم ذَهَبَ الجنوبيّون؟
لا حربٌ هناك ولا سلامٌ، والسماءُ
نظيفة وخفيفة فوق المكان ...
وقال لي، متأبطاً كُرّاسَهُ الشعريَّ:
هذا، يا غريب، هُويَّتي

متداخلاً في الأبجدية. كُلُّ حَرْفٍ ربوةٌ
وحديقةٌ. هو، لا أنا، في الحرف
سيِّدُ نفسه. يختار عالمه الخياليَّ

البعيد من الطبيعة: رُبَّما نَقَّحْتُ
أخطاء الخريطة. ربما أَصلحتُ ما فعل
النحاسُ بإخوتي..
ويقول لي: أنا حاضر في كُلِّ شيء
غائب عن كُلِّ شيء، بين أَمس
وحاضري صفصافة
صفصافة في ملتقى زمنين
قلت: فمن تكون؟
فقال لي، متأبطاً كُرَّاسَهُ
متورطاً بكلامه الشعري:
هذا ما تبقَّى من حُطام هُوِيَّتي!

# حق العودة إلى الجنة

إذا كان الله قد عاقب آدم، بطرده من الأبدية إلى الزمن، فإن الأرض منفى، والتاريخ مأساة... بدأت بحرب عائلية بين قابيل وهابيل، ثم تطورت إلى حروب أهلية وإقليمية وعالمية، ما زالت مستمرة إلى أن يقضي أحفادُ التاريخ على التاريخ. فماذا بعده؟ ماذا بعد التاريخ؟ يبدو أن حق العودة إلى الجنة محفوف بالعدم وبالأسرار الإلهية. أما الطريق الممهَّد الوحيد فهو الطريق إلى الهاوية، حتى إشعار آخر ... حتى صدور العفو الإلهي.

# لولا الخطيئة

لا كما ظنَّ آدَمُ!

لولا الخطيئةُ
لولا النزولُ إلى الأرض
لولا اكتشافُ الشقاء
وإغواءُ حوّاء
لولا الحنين إلى جنّةٍ غابرةْ
لَمَا كان شِعْرٌ
ولا ذاكرةْ
ولما كان للأبديّة معنى العزاء!

# خريف إيطالي

أُغنية تفتقر إلى كلمات إيطالية. يا له من خريف ... ويا له من خريف. السماء لا هي زرقاء ولا هي بيضاء ولا رمادية، لأن الألوان وجهاتُ نظر تختلف وتأتلف. الغيومُ الصغيرة مناشف تمسح الرذاذ عن أَعالي الجبال. وترتفع الجبال كلما دَنَتْ منها السماء. الأشجار كائنات أُنثوية خرجت للتو من حمَّام السحاب لارتداء طيورٍ لا تهاجر اليوم، لأن الخريف لا يومىء إلى زمن ذابل وَشَجَن. هو عرض أزياء احتفاليّ

لاشتقاق اللون من اللّالون. يهيِّج الحنين إلى ما يتلو الوصف، ويسبق حشرجة الكهرمان في المضاجع. الخريف شحوب الرخام إذا ما استيقظت الحواس على نداء العسل. وأَنا هنا، في ضواحي أكويلا الإيطالية، جالس وراء شرفة زجاجية واسعة ترشد النظر إلى ما ينتظر القلب من سكينة: في الوادي أَبدية تلقي التحية العابرة على زُوَّارها الصاعدين إلى سفوح جبالٍ نَقَشَ عليها التاريخُ قلاعاً حصينة لصدّ البرابرة. ثم هبط إلى الوادي مجعَّداً مطاطىء الرأس. لا شيء يثير فزع الغزلان والأرانب. ولا شيء يرسل حنيني إلى شيء، وأَنا أتابع أوراق الشجرة المتباطئة في الهبوط التدريجي إلى الأرض، كامرأة تتعرَّى على مهلها في خيال العاشق. أنا هنا ورقة الشجرة يحملني الهواء إلى نوم شتائي أصحو منه على بُرْعُمي. هنا، قرب هذه الأبدية الأليفة، اللامبالية بتاريخ القلاع، يعثر

زائر مثلي على معنى ما من معاني الغيوم، فيقول: حمداً للخِفَّة .. حمداً!

# مسافران إلى نهر

رأيتُ الحبّ عن بعد خمسة أمتار. رأيته جالساً على مقعد في قاعة المسافرين إلى عناوين غير مرتجلة. ألمطار مزدحم. الفتى الفرنسيّ والفتاة اليابانية غريبان عن الزحام. ملفوفان، كما بدا لي، بغمامة واحدة زرقاء. يتناوبان النُعاس ولا يلتفتان إلى ما هو خارجهما. تنظر إليه حين يضع رأسه على كتفها نظرةً حريريَّةً تحرص على ألَّا تخترقه. كأنها لا تريد له أن يراها تراه، كأنهما في أوَّل الحب وتخجل من أن

يعرف كم ستحبُّه. ثم يتبادلان الخَفَر ... ينظر إليها حين تضع رأسها على كتفه نظرة مَنْ يخشى على تُحْفَةٍ بلّورية هشّة من الانكسار. وحين تلتقي النظرتان على شغف وشفافية، تنهض الفتاة لتشتري زجاجة ماء. تسقي الفتاةُ الفتى كأنها ترضعه، ويسقيها كما لو أنه يُقَبِّلها. طويتُ رواية الرحلة لأرى صورة الحب عن بعد. ارتعشت وانتعشت بموجة عطر خفيّ هَبَّتْ عليَّ من فتاة يابانية وفتى فرنسي بلغا من الرهافة منزلة غزال وظبية. لم يقل لها شيئاً. ولم تقل له شيئاً. فقد اكتفيا بفواصل الصمت في الموسيقى اليابانية. لعلهما لم يبلغا سنَّ الكلام عمَّا هما فيه من تلاشي الواحد في الآخر. لو قالت له شيئاً لكان: النهر الذي سنجتازه بعد هذه الرحلة يمرُّ قرب بيتنا. ولو قال لها شيئاً لكان: النهر الذي سنجتازه بعد هذه الرحلة هو بيتنا!

# قاتل وبريء

هُوَ الحُبُّ، كالموجِ

تكرارُ غبطتنا بالقديم ـــ الجديد

سريع، بطيء

بريء كظبي يسابق درّاجةً

وبذيء ... كديكْ

جريء كذي حاجةٍ

عصبيٌّ المزاج رديء

هادىء كخيالٍ يرتِّب ألفاظه

مظلمٌ، معتمٌ ... ويضيء

فارغٌ ومليء بأضداده

هو الحيوان | الملاك
بقوّة ألَف حصان، وخفّة طيف
وملتبسٌ، شَرِسٌ، سَلِسٌ
كلما فرّ كرّ
ويُحْسنُ صنعاً بنا ... ويُسيء
يفاجئنا حين ننسى عواطفنا
ويجيء ...
هو الفوضويّ | الأنانيّ |
والسيِّد | الواحد | المتعدِّدُ

نُؤْمنُ حيناً، ونكفر حيناً
ولكنه لا يُبالي بنا
حين يصطادنا واحداً واحدةْ
ثم يصرعنا بيد باردةْ

إنه قاتلٌ ... وبريء!

# كأنها أُغنية

كما لو حلمتُ: رأيتكِ بيضاءَ، سمراءَ،
حنطيّةً ... تَصْطَفين من اللون تأويله.
تجلسين على ركبتيَّ، كأنك أنتِ. كأني
أنا. ولنا ما يُعدُّ لنا الليل من
نُزْهَةٍ في حدائقه الليلكيّة. كُلُّ هناك
هنا. كُلُّ شيء لنا. أنتِ لي، وأنا لك
والظل ــ ظلّك يضحَكُ كالبرتقالة. والحلم
أدَّى مهمته مثل ساعي البريد، وطار
إلى غيرنا. فعلينا إذن أن نكون
جديرَيْن، هذا المساء، بنا ... وبنهر
يرافقنا، ونفيض به ويفيض بنا!

# شاعري / آخَري

أَلقصيدةُ تُولَدُ في الليل من رحم الماء.
تبكي، وتحبو، وتمشي، وتركض في الحلم
زرقاءَ بيضاءَ خضراءَ. ثم تَشبُّ وتهربُ
في الفجر |
يَحْدُثُ هذا، وشاعرها نائم لا يُحسُّ بها
وبما حوله. لا يراها تغافله وتطير إلى
غيره.
في الصباح، يقول: كأني حلمت بها،
بالقصيدة ... أَين هي الآن؟
يشرب قهوته شارداً، حاسداً غيره
ويقول أخيراً: هنيئاً له شاعري | آخري!

# سماء صافية وحديقة خضراء

أَلسماءُ الصافية تفكير بلا فكرة كحديقةٍ كُلُّها خضراء. قصيدة لا عيب فيها سوى إفراطها في الوضوح. تفتقر السماء إلى غيمة ولو عابرة لتوقظ الخيال من خَدَر الأزرق. وتفتقر الحديقة الخضراء إلى لون آخر، أحمر أو أصفر أو ليلكي، وإلى بنات آوى، لكي يحار القلب بين الأنواع. فالجاهز خصم الحافز. والقصيدة محتاجة إلى ما يشبه الخلل الماكر لكي نصدِّق الشاعر حين يكذب ويكتب عن حيرة الروح

بين سماء صافية وحديقة خضراء. فما حاجتنا للشعر إذا قال الشاعر: إن السماء صافية. وإن الحديقة خضراء؟

# كلمة واحدة

هسيسُ الكلمة في اللّامرئيّ هو موسيقى المعنى، يتجدد في قصيدة يظنُّ قارئها، من فرط ما هي سريَّة، أنه كاتبها!

كلمةٌ واحدةٌ، كلمة واحدة فقط، تشعُّ كماسة أو يراعة في ليل الأجناس، هي ما يجعل النثر شعراً!

وكلمةٌ عاديَّةٌ، يقولها لا مبالٍ للا مبالٍ آخر، على مفترق طرق أو في السوق، هي ما يجعل القصيدة ممكنة!

وجملةٌ نثريَّةٌ، لا وزن فيها ولا إيقاع،
إذا أَحسن الشاعر استضافتها في سياق الملائم،
ساعدته على ضبط الإيقاع، وأضاءت له
طريق المعنى في غَبَش الكلمات.

# بيت القصيد

ألشيء الناقص في القصيدة، ولا أَعرف ما هو، هو سرّها المُشِعّ. وهو، ذلك الناقص، ما أُسمِّيه «بيت القصيد»



حين تكون القصيدةُ واضحةً في ذهن الشاعر، قبل كتابتها، من السطر الأول حتى الأخير، يصبح الشاعر ساعي بريد، والخيالُ درّاجة!



أَلطريق إلى المعنى، مهما تشعّب وطال،

هو رحلة الشاعر. كُلَّما ضلَّلته الظلال اهتدى!



ما هو المعنى؟ لا أَعرف. لكني قد أَعرف ما هو نقيضه. نقيضه هو استسهال العَدَم!



ليس الألم موهبة. هو امتحانها: فإمَّا أَن تقهره ... أو يقهرها!



كُلُّ شِعْرٍ جميلٍ ... مقاومة



أَلتراث الحيّ هو ما يُكْتَبُ اليوم ... وغداً



أَلشاعر الكبير هو مَنْ يجعلني صغيراً حين

أكتب ... وكبيراً حين أَقرأ!



أَمشي بين أبيات هوميروس والمتنبي
وشيكسبير ... أَمشي وأَتعثر كنادلٍ مُتَدرِّب
في حفلة ملكية!



ألغيمة في خيال الشاعر ... فكرة.



الشعر ... ما هو؟ هو الكلام الذي نقول
حين نسمعه أو نقرؤه: هذا شعر!
ولا نحتاج إلى برهان.

# هجاء

لا يستقيم مديح السلطانة إلَّا بقصيدة عمودية: الصَّدْرُ للصدريَّة. والعَجُزُ للعَجِيزة!

ورثاء السلطان مديحٌ تأخَّر لأسباب بروتوكولية: لم يأذن الحاجب للشاعر بدخول القصر وتأدية الواجب. لكن أَذِنَ له بزيارة القبر.

لا أكره شاعراً يكرهني. لكني أعتذر عما سبَّبتُ له من ألم!

# في الخطابة والخطيب

أَلخطابة، في معظمها الآن، هي فَنُّ ابتذال المهارة. طبلٌ يناجي طبلاً في ساحة كلما اتسعتْ، وجد الصوتُ متسعاً لامتلاء الصدى بضجيج الفراغ. يتلقَّفه الخطيب ليحشوه بمزيد من هباء المعنى. الصوت، لا الكلام، هو السيِّد مرفوعاً على صدى تحميه الأكفُّ من خطر السقوط على الحقيقة. الخطابة ليست ما يريد الخطيبُ ـ المهرِّج قوله، فالصوت يسبق القول الغائب، والخطبة هي الغاية ... هي ما ترتجله الغريزة

من حماسة الفتك بالخصم، وما يُعْجِبُ مشاهدي مصارعة الثيران الساديين من نصال فارس بلا فروسية. الخطابة هي إعدام المعنى في ساحة عامة. المبتدأ يبدأ بعد استراحة الصوت القصيرة لارتشاف جرعة ماء. أما الخبر المتأخّر فهو متروك للارتجال المتبختر الذي تسنده آيةٌ قرآنية أُخرجت من سياقها، أو بيت شعر قاله شاعر في مدح أمير أمويّ ظنّه الخطيب عباسياً، فأثار التصفيق. التصفيق هو المبتغى والقصد، يستعيد خلاله الخطيب اللاأفكار القادمة عليه من المشهد، فيبتسم كمن يكافىء جمهوره على حسن ظنهم بذكائهم المكتسب من فائض ذكائه، ويمنحهم نكتة تنوس بين الفكاهة والتفاهة، فيضحكون ويضحك. الخطابة هي تأليب الضجر على الضجر ببلاغة الشكوى مما لحق بالأمة من خطر الضجر. يخلع الخطيب معطفه ليدل الجمهور على موضع ضميره الحيّ. يضع يده في جيب بنطاله بحثاً عن فكرة،

ويتحرك يميناً ويساراً لأنه حائر في تمايز القوم. فإن كانوا يمينيين صدقوه، وإن كانوا يساريين صدقوه. ثم يعود إلى منزلة بين المنزلتين. ولا يكفّ عن ترديد كلمة: صَدِّقوني! الخطابة هي الكفاءة العالية في رفع الكذب إلى مرتبة الطرب. وفي الخطابة يكون «الصدق زلة لسان»!

# مناصفة

تحيا مناصفةً،
لا أنتَ أَنتَ، ولا
سواكَ
أَين «أنا» في عتمة الشَبَـهِ؟

كأنني شَبَـحٌ
يمشي إلى شَبَـحٍ
فلا أكون سوى شخص مررتُ بِهِ

خَرَجْتُ من صورتي الأولى

لأدركه

فصاح حين اختفى:

يا ذاتِيَ انتبهي!

# أظن

أَظنُّ،
ولا إثْمَ في مثل ظني
ولا وَهْمَ،
أني
بخيط حريرٍ أَقُصُّ الحديد
وأَني
بخيط من الصوف
أَبني خيام البعيد
وأَهرب منها
ومني
لأني ... كأنِّي!

# السطر الثاني

أَلسطرُ الأوَّلُ هِبَةُ الغيب للموهبة. أَما السطر الثاني فقد يكون شعراً أو خيبة أَمل [فروست]. السطر الثاني هو صراع المجهول مع المعلوم. خلاء الطرق من الإشارات، وامتلاء الممكن بالأضداد، فكُلُّ ممكن ممكن، وهو حيرة تقليد المخلوق الخالقَ. هل الكلمة تقود قائلها أم قائلها يقودها؟ السطر الثاني لا يوهب، بل يُصنع بكفاءة ترويض اللامرئيّ. فأنت ترى ولا ترى من شدّة التباس الضوء مع العتمة. وأنت... أنت

الذي مَنَحَكَ الإلهامُ إشارة البدء. وتخلّى عنك لتمضي وحدك في مغامرة بلا بوصلة. أنت كمن يخرج إلى غابة دون أن تعرف ما ينتظرك: قُطّاع طرق، أم طلقة، أم صاعقة، أم امرأة تسألك: ما الزمن؟ فتقول لها: «توقّف الزمن فمرِّي» [بيسّوا]. الممكن غابة. فعلى جذع أية شجرة تسند خيالك، ومن أيّ وحش تنجو؟. إذا اهتديت إلى السطر الثاني في متاهة الممكن، عرفت الطريق المعبّد إلى موعد مع المستحيل!

# أَعلى وأَبعد

رَطْبٌ هواءُ البحر |
عَذْبٌ شَدْوُ عصفورٍ على الشُبّـاك |

هذا ما تبقى من كلام الحلم ...
حين صَحَوْتُ، عند الفجر، قُلْتُ:
لعلَّ لاوعيي البريءَ يفضِّلُ الإيقاعَ
حين يقول لي:
«رَطْبٌ هواءُ البحر
عَذْبٌ شَدْوُ عصفور على الشُبّـاك»

لكن، كان وعيي يرشد المعنى إلى الإيقاع

[أو بالعكس]

حين يقول لي:

صَعْبٌ صعود التلّ ... فاصعَدْ

أَعلى وأَبعدْ!

# الكناري

قرب ما سيكون

استمعنا إلى ما يقولُ الكناريُّ

لي ولَك:

ألشَّدْوُ في قَفَصٍ ممكنٌ

والسعادةُ ممكنةٌ ...

والكناريُّ حين يُغَنِّي

يقرِّب ما سيكون

غداً تنظرين إلى اليوم — أمسِ

تقولين: كان جميلاً

وكان قليلاً

ولا تفرحين ولا تحزنين

غداً، نتذكَّر أنَّا تركنا الكناريَّ

في قفص، وحده

لا يغنِّي لنا

بل يغنِّي لقنَّاصةٍ عابرين...

# في مركب على النيل

مركبٌ على النيل. يوم الثلاثاء. قهوةٌ وشايٌ ودخانُ سجائر. وكلام عن الدنيا التي لا نعرف غيرها. أمَّا ما يتخيَّلُهُ كل واحد من المتحلقين حول نجيب محفوظ عما وراء الدنيا، فيتقاسمه سراً مع طيور تحلِّق فوق نهر الأبدية. وهو، هو المستمع بأذن انتقائية، تأخذ الكلمات وقتَها في الوصول إليه، لا يريد للمريدين أن يفسروا كلامه المتقشف بأكثر مما فيه. يعرف من المدائح ما يكفي ليجعل العبث

زُهْداً. ولا يريد لأحد أن يحدِّق إلى صنم أو منحوتة. لكننا نحجُّ إليه، لا لنعرفه ... فقد امتلأنا برواياته وتقمَّصْنا شخوصها، بل لنحيّيه على ما كتب، ولنحيِّي أنفسنا جالسين بحضرة أسطورة حية خرجت من مخطوطة فرعونية. رأيت نساءً قادماتٍ من أقاصي حرف الضاد يُقَبِّلْنَ يده، فيخجل ولا يعرف السبب، كأنه هو ولا هو في آن واحد. ثم يضحك ضحكة عالية، ويطلب سيجارة حان وقتها ليبدِّد بسحابة دخانها قداسةً لا يصدقها ماكرٌ مثله، وللناس التأويل. عاش ليكتب. ومنذ طعنه خنجر في الرقبة تخلَّى عن سرد التفاصيل بدأب النملة، واختار تقطير النحلة. من يومها، ونحن نجيء إليه مُوَدِّعين، فالحياة انتبهت إلى نقصانها وسئم الموتُ التأجيل ... دون أن نشي بذلك، ونحن من حوله في مركب على النيل، يوم الثلاثاء! لكن يوم الثلاثاء لم يعد موعدنا!

# إدمانُ الوحيد

أَسْتَمِعُ إلى أم كلثوم كل ليلة، منذ كان الخميس جوهرتها النادرة، وسائر الأيام كالعقد الفريد. هي إدمانُ الوحيد. وإيقاظُ البعيد على صهيل فَرَسٍ لا تُرَوَّض بسرج ولجام. نسمعها معاً فنطرب واقفين، وعلى حدة فنظلُ واقفين ... إلى أَن تومىء لنا الملكة بالجلوس فنجلس على متر من ريح. تُقَطِّعنا مقطعاً مقطعاً بوَتَرٍ سحريّ لا يحتاج إلى عود وكمان... ففي حنجرتها جوقة إنشاد وأوركسترا كاملة، وسرّ

من أسرار الله. هي سماء تزورنا في غير أوقات الصلاة، فنصلّي على طريقتها الخاصة في التجلّي. وهي أرض خفيفة كفراشة لا نعرف إن كانت تحضر أم تغيب في قطرة ضوء أَو في تلويحة يد الحبيب. لآهتها المتلألئة كماسةٍ مكسورةٍ أن تقود جيشاً إلى معركة... ولصرختها أن تعيدنا من التهلكة سالمين. ولهمستها أَن تُمْهلَ الليل فلا يتعجّل قبل أن تفتح هي أولاً باب الفجر. لذلك لا تغمض عينيها حين تُغَنِّي لئلا ينعس الليل. هي الخمرة التي تسكرنا ولا تنفد. الوحيدةُ الوحيدةُ سعيدةٌ في مملكتها الليلية ... تُجنِّبُنا الشقاء بالغناء، وتحبِّبُنا إلى إحدى حفيدات فرعون، وتُقَرِّبنا من أبدية اللحظة التي تحفرها على جدار معبد ينصاع فيه الهباء إلى شيء ملموس. هي في ليلنا مشاع اللا أحد. منديلها، ضابط إيقاعها، يرقٌ لفيلقٍ من عُشّاقٍ

يتنافسون على حُبّ مَنْ لا يعرفون. أما قلبها، فلا شأن لنا به ... من فرط ما هو قاس ومغلق كحبة جَوْزٍ يابسة!

# في الرباط

في مدينة الرباط، المرفوعةِ على أمواج الأطلسي العالية، يمشي الشاعرُ على الشارع بحثاً عن مُصَادَفَة المعنى وعن معنى المصادفة. يعرف النخيل جيّداً، ويسأل المارة عن أسماء الأشجار الأخرى، حاملةِ الجَمْر، دون أن يحصل على جواب واحد، كما لو أَن الشجر وجهةُ نظر أو استعارة. لكن المارة يسألونه عن وجهة الاستعارة في قصيدةٍ ما نسي أنه كاتبها، فلا يقدّم جواباً واحداً، كما لو أن الاستعارة شجرةٌ مجهولة الاسم.

من تحية إلى تحية، يمشي الشاعر على الشارع كأنه يمشي في قصيدة غير مرئية، يفتتحها شيخ مغربي ينحني على كسرة خبز... ينفض عنها التراب، ويقبِّلها ويَدَّخرها رزقاً للطيور في ثغرة جدار. ولي ... في مدينة الرباط مكان شخصي هو مسرح محمد الخامس. هناك تمتلىء نفسي بما ينقصها من ضفاف. ما أَعرفه عن نفسي ـ وهو قليلٌ ـ يكفي لأن أتوحَّد مع هذا المعبد المفتوح لمفاجآت الإلهام. كأني هناك لا أَقرأ ولا أُنشد، بل أَرتجل ما يملي عليَّ الصمتُ والضوء الخافت والعيونُ التي ترسل الإشارات، فأصوغها في عبارات وأعيدها إلى أيدٍ تمسك بها كما لو كانت مادة شفَّافة، مصنوعةً من هواء. كأني أقرأ شعر غيري، فأطرب لأنه شعر غيري. وأنا لا أنا إلّا بقدر ما يكون الشعر هو الشاعر. لكني أسترق النظر إلى فتاة تضحك وتبكي في ركن القصيدة القصيّ، فأبكي وأَضحك لها

متواطئاً معها على فتح أبواب المسرح للتأويل. وللمغاربة أن يقولوا: نحن مَنْ أوحى إليه!

# وصف

مَرَّتْ كحادثةٍ،
على الكتفين صَقْرانِ استراحا في العُلُوِّ ...
وصدرها يعلو ويهبط مثل فِعْل الحُبِّ،
يحمل توأمين تغامزا وتقافزا فوق الرخام...
وركبتاها ترسلان البرق للأَعمى ...
وساقاها عمودا هيكلٍ من مَرْمَرٍ
يتبادلان الريحَ والإعجازَ ...
والقدمان عصفوران شرّيران جوِّيان ــ برّيانِ
والشَعْرُ المبعثر في مهبّ الريح
بيرقُ عسكريٍّ يفتح الصحراء ...

والعينان لا تتطلّعان إلى ضحاياها
فلا أَحدٌ رأى العينين كي يروي
بأيٍّ بَنَفْسَجٍ صَرعَتْهُ
تلك المرأة ــ الجنيّةُ ــ القَدَرُ
التي مَرّتْ كحادثة ...
ولكني نجوتُ، ولم يُصِبْني أيٌّ سوء
غير ضعف الوصف في هذي القصيدة!

# في سكوغوس

سكوغوس، من ضواحي ستوكهولم. غابةٌ من أشجار البتولا والصنوبر والحور والكرز والسرو. وسليم بركات في عزلته المنتقاة بمهارة المصادفة التي تهبُّ بها الريح على المصائر. لا يخرج منها منذ صار جزءاً من المشهد، محاطاً بطيور الشمال: العقعق والغراب وكسَّار الجوز ونقَّار الخشب والزرياب والقُرْقُفُ والشحرور الأسود والسمَّان والذيل الحرير. صادقها ريشاً ومنقاراً وذيلاً وهجرة، ومنحها صفاتٍ

كُرديَّةً من مشتقات القلق، لا ليكسر العُزلة، بل ليؤثِّث شروط الإقامة في البعيد ... بعيداً عما يفعل الكُتَّاب بالكتاب إذا غاروا من بلاغة المنفيّ ... وقريباً من أُلْفَةِ السناجب، والأرانب والغزلان والثعالب التي تلقي عليه التحية عبر النافذة، وتهرب وتلعب خلف تمارينه اللغوية. يستيقظ على تحرُّشات الطير بزجاج البيت المبنيّ بالطوب والخشب. يجرُّ عربته الصغيرة إلى سوق اللحم: نداءِ الحسيّ للحسيّ. يختار منه الصريح المتعطِّش إلى تدريب المتوحِّش على آداب الطهو. ويختار، لتأجيج الرغبة بين الآكل والمأكول، توابلها الحارقة الحاذقة... الفُطْر المخصَّص لمذاق التورية، ونبيذاً شيرازيّ النَّسَبِ يُوقِظُ في الشاعر نزعته إلى الطرب في خريف المنفى. يجرُّ عربته الصغيرة وسط الغابة برفقة طيور الشمال التي تعرفه من فانيلّته المبلَّلة بالمطر والعرق.

فلا أَحد سوى كرديّ مثله يتجاسر على مناخ البلطيق. وهو إذ يهجس الآن فلا يهجس إلَّا بالطهو: قصيدةِ نهاره المرئية. الطهو موهبة اليد المدرَّبةِ على وضع الملائم في الملائم، وعلى إدراك المتخيّل الشعوري بالرائحة والطعم، وعلى إبداع المعنى الحسي مما كان بدائي الشكل. الطّهْوُ شِعْرُ الحواس إذا اجتمعت في يد ... قصيدةٌ تؤكل ولا تتحمَّل خللاً في التوازن بين العناصر. وسليم بركات لا يتحمَّل الشتاء، منذ صار سريع البكاء!

# جهة المنفيّ

يَتَـلَفَّتُ المنفيُّ نحو جهاتِهِ
وتفرُّ منه المفرداتُ ــ الذكرياتُ
ليس الأمام أَمامَهُ
ليس الوراء وراءَهُ
وعلى اليمين إشارةٌ ضوئيةٌ
وعلى اليسار إشارةٌ أُخرى
فيسأل نفسه:
من أَين تبتدىء الحياةُ؟
ــ لا بُدَّ لي من نرجسٍ
لأكون صاحب صورتي!

ويقول: إنَّ الحُرَّ مَنْ يختار منفاهُ
لأَمرٍ ما ...
أَنا حُرٌّ إذن
أَمشي ... فَتَتَّضحُ الجهاتُ

# بوليڤار سان ـ جيرمان

يقول لي جورج شتاينر: على الشاعر أن يكون ضيفاً ...

أقول: ومضيفاً!



الأوراقُ الذابلةُ، النازلةُ من شجرٍ يَتَعرَّى، كلمات تبحث عن شاعر ماهر يُعيدها إلى الأغصان!



كلما تخفَّى الإيقاعُ في الصورة صار موسيقى

مصاحبة للفكرة!



جالساً مع بيتر بروك، تحلِّق فوقنا طيور أرسطوفان وفريد الدين العطار في رحلة مشتركة إلى تُخوم المعنى.



منفى؟ يحنُّ إليه الزائر، لأنه نزهة الطائر في رحلة لا يسأله فيها أحد: ما اسمك؟ وماذا تريد؟



في الحافلة، أَتطلّع إلى الرصيف، فأراني جالساً على مقعد المحطة في انتظار حافلة!



أَلتَظَاهُرُ بالحياد الصعب، في القصيدة والرواية، هو الجريمة الأخلاقية الوحيدة التي تُغْتَفَر!



كَسْرُ الإيقاع، بين حين وآخر، هو ضرورة إيقاعية.



أَتْرُكُ الجانب الآخر من حياتي، حيث يريدُ الإقامة. وأَتبع ما تبقَّى من حياتي بحثاً عن الجانب الآخر منها.



إحساسي يقفز مني، يحمل مظلَّةً ويسير تحت المطر. إحساسي فِعْلٌ خارجيٌّ كالمطر.



رياح الخريف تكنس الشارع، وتعلِّمني مهارة الحذف. الحذف كتابة.

# يكون الأَمر مختلفاً

لا. لن يكون الأمرُ مختلفاً كما
كنا نظنُّ ... لو انتظرنا ساعةً أخرى ـ
يقول لها ... ويذهَبُ |

ـ رُبَّما، لو حطَّ عصفورٌ على كتفي
لكان الأمر مختلفاً ـ
تقول له ... وتذهَبُ |

يذهبان معاً. وينفصلان عند محطة المترو
كنصْفَيْ خَوْخَةٍ، ويودّعان الصيف ...

يعبر عازفُ الجيتار بينهما، ويضحك
عندما يبكي. ويبكي حين يضحك قائلاً:
لا. قد يكون الأمر مختلفاً لو استمعا
إلى الجيتار في الوقت المناسب.
قلتُ: كلا! قد يكون الأمرُ
مختلفاً لو التفتا إلى ظلّيهما يتعانقان
ويعرقان ويسقطان على الرصيف
كمثل أوراق الخريف!

## حياة مبتدئة

في حانوت خبز، على ناصية شارع باريسي ضيِّق ... أَحتسي قهوتي الأولى. صباحاً تختلط رائحة الخبز برائحة القهوة، وتوقظان فيَّ شهية على حياة طازجة .. حياة مبتدئة، وعلى سلام طوعي مع الأشياء الصغيرة، ومع حمامات تُؤْثِرُ المشي بين المارة والسيارات على الطيران. لا أَجد غيري يجلس وحيداً إلَّا من دفتر يوميات. لكني أحس بأني أشارك السيدات المتقدمات في العمر حماستهنّ تجاه تفاصيل يروينها عن

حياةِ غيرهنّ. وأُشارك بائعات الخبز والنادلات الجميلات حيادهنَّ اللبق تجاه مغازلات الزبائن المتقدمين، أكثر مني، في السن. أَتباطأ في احتساء قهوتي لأحافظ على صحبة مفترضة مع ما حولي، فليس للغريب إلّا اختراع أُلفة ما مع مكان ما. وأَنا اخترت هذا الركن من حانوت الخبز لتأليف عادة يومية، كأني على موعد مع ذكريات مجتهدة تعتمد على نفسها في النمو. وأَسترسل في التفكير بتاريخ الخبز: كيف اكتُشِفَتْ حَبَّةُ القمح الأولى في سنبلةٍ خضراء مجدولةٍ كضفيرة. وكيف راقبها شخص ما إلى أن نضجت واصفَرَّتْ؟ وكيف خطر على باله أن يطحنها ويعجنها ويخبزها حتى وصل إلى هذه المعجزة؟ أَرى حقولاً بعيدة في زمن بعيد، وأتساءل: كم استغرق هذا الإبداع من الوقت؟ تعلو رائحة الخبز الطازج، وأنظر في ساعتي ... ثم أَعود من آلاف السنين إلى حياة مبتدئة!

# يد التمثال

يَدُ التمثال، تمثالِ الجنرال أو الفنان،
ممدودةٌ ... لا لتحيَّة الشمس والمطر،
أو الجنود القدامى والمعجبين الجدد.
يَدُ التمثال ممدودةٌ كيد متسوِّل نبيل
يطلب تبرعاتٍ من العابرين، لا لمساعدته
على المشي .. بل لدفع نفقات الخلود.
فلا تحظى يَدُ الغرانيت الممدودةُ،
لا تحظى في أحسن الأحوال، إلّا
بباقة وردٍ حملها رجلٌ إلى امرأة...
تَرَكَتْهُ وحيداً قرب التمثال!

# في بيروت

بيروتُ: شمسٌ ومطر. بحر أَزرق / أَخضر وما بين اللونين من قُرْبَى ومصاهرة. لكن بيروت لا تشبه نفسها هذه المرة. تنظر إلى صورتها في المرآة، وتسأل: لماذا تريدين أن تشبهي غيرك يا جميلة؟ تضع جمالها على موجة قلقة، وتخفي أدواتِ الزينة في الأدراج. تُسَرِّحُ شعرها بيدين نزقتين وتنتظر، دون أن تعرف ما تنتظر كوردة على قارعة الطريق العام. لكن المناخ مكتظ بأسرار

الغيوم القادمة من جهتين: من الصحراء ومن البحر ... ولا سيطرة للخيال على فوضى المفاجآت. تضع خيالها جانباً، وتُسْلِمُ نفسها لأغنية تمدح اللامعنى دون أن ترقى إلى شرف العبث. بيروت محرومة من نسيان جرحها، ومحرومة من تَذَكُّر غدها المتروك لرمية نرد في لعبة بلا قواعد، كتجريبيّة شعر ما بعد الحداثة في مقاهيها الخالية من الرُوَّاد. لا أَحد يربح، والكل خاسر، حتى لو قال صديقي أنسي الحاج «والرابح يخسر والخاسر يربح». بيروت الحزينة تُخَدِّر حزنها بأغنية سابقة عن زمن سابق: عن ريفٍ وأَرْزٍ وبراءة ومُبَارَزَةٍ بين عاشقين على عروس. فينام الحزن لساعات، لكن الخوف لا ينام. بيروت خائفة على نفسها ومن نفسها، ومما تعدُّ لها العاصفة من معلومٍ في صورة مجهول!

# عودة حزيران

أَربعون حزيران: دَبّابةٌ في الطريق إلى
البيت. بُرْجُ مُراقَبَـةٍ عسكريٌّ لرصد الطيور.
حمام يُحَلِّقُ في نصف دائرةٍ. نَخْلَةٌ عاقرٌ.
ضَجَرٌ فاجر يقتل الأخُ فيه أَخاه، ويهرب
من أُمِّه. وشعارٌ يضيء الشوارع: «نحن
نحبُّ الحياة ونكره أَعداءها». شارع ضيِّـق
لا تمرُّ به الفتيات. مظاهرة للتلاميذ
ضدَّ الخرائط. «لا ربَّ ينزل عن
عرشه» ــ قال لي عابر ساخر: ليس
لي بَطَلٌ منذ جاء حزيران مسترسلاً.

أنا واللّهُ صرنا وحيدين! ما الزمن
الآن؟ ـــ في ساعتي خَلَلٌ ـــ قلتُ.
قال: وفي ساعتي خلل مزمنٌ. مَرَّتِ
الشاحنات تُقِلُّ بضائعَ عبريَّةَ التسميات:
صناديق ماء. فواكه. قمحاً وخمراً. فقال:
كأنَّا نسينا ينابيعنا والكروم وأَسماءنا،
وكأنَّ القناع هو اسم الهوية: أَنْ لا
نُرَى واضحين نَرَى الغامضين هنا جيِّداً.
وهنا أَربعون حزيران. أَرض تَقِلُّ وسُكَّانُها
يكثرون ... يفيضون عن حاجة العشب للفقراء،
وعن حاجة الإشكناز إلى العَمَل العربيّ.
ولكنهم يصمدون، ولو مرغمين، ولا يرحلون
إلى كندا. هذه أَرضنا، والسماء حقيقيَّةٌ
لا مجاز ... وعاليةٌ مثل آمالنا. قال لي:
هل حزيران ذكرى؟ فقلت: هي الجرحُ
ينزف حيّاً وحيّا، ولو قال صاحبه: قد
نسيتُ الأَلم!

# ليتنا نُحْسَد

تلك المرأةُ المهرولةُ، المُكَلَّلةُ ببطانيةِ صوفٍ وجرَّة ماء ... وتجرُّ بيدها اليمنى طفلاً، وبيدها اليسرى أُختَه. ومن ورائها قطيع ماعز خائف. تلك المرأة الهاربة من ساحة حرب ضيِّقة إلى ملجأ غير موجود ... أَعرفها منذ ستِّين عاماً. إنها أُمي التي نسيتني على مفترق طرق، مع سلّة خبز ناشف وشمعة وعلبة كبريت أَفسدها الندى.

وتلك المرأة التي أراها الآن في الصورة

ذاتها على شاشة تلفزيون مُلَوَّن ... أَعرفها جيداً منذ أربعين عاماً. هي أُختي التي تكمل خطى أُمِّها ــ أُمِّي في سيرة التيه: تهرب من ساحة حرب ضيِّقة إلى ملجأ غير موجود.

وتلك المرأة التي سأراها غداً في المشهد ذاته، أَعرفها هي أيضاً. إنها ابنتي التي تركتها على قارعة القصائد، كي تتعلَّم المشي فالطيرانَ إلى ما وراء المشهد. فلعلَّها تثير إعجابَ المشاهدين وخيبةَ القنَّاصة. إذ إنّ صديقاً ماكراً قال لي: آن لنا أَن ننتقل، إذا ما استطعنا، من موضوع يُشْفَق عليه ... إلى ذاتٍ تُحْسَد!

## أنت، منذ الآن، غيرك

هل كان علينا أَن نسقط من عُلُوّ شاهق، ونرى دمنا على أَيدينا ... لندرك أَننا لسنا ملائكةً كما كنا نظن؟



وهل كان علينا أن نكشف عن عوراتنا أمام الملأ، كي لا تبقى حقيقتنا عذراء؟



كما كذبنا حين قلنا: نحن استثناء!



أن تصدِّق نفسك أسوأ من أن تكذب على غيرك!



أن نكون ودودين مع من يكرهوننا، وقساةً مع من يحبوننا ـ تلك هي دونية المتعالي، وغطرسةُ الوضيع!



أَيها الماضي! لا تغيِّرنا كلما ابتعدنا عنك!

أيها المستقبل! لا تسألنا: مَنْ أَنتم؟ وماذا تريدون مني؟ فنحن أيضاً لا نعرف.

أَيها الحاضر! تحمَّلْنا قليلاً. فلسنا سوى عابري سبيل ثقلاء الظل!



أَلهوية هي ما نُورِثُ لا ما نرث. ما نخترع لا ما نتذكر. الهوية هي فساد المرآة

التي يجب أن نكسرها كلما أَعجبتنا الصورة!



تَقَنَّعَ وتشجَّعَ، وقتل أمّه ... لأنها هي ما تيسَّر له من الطرائد ... ولأن جنديَّةً أوقفته وكشفت له عن نهديها قائلة: هل لأمك يا ابن الزانية ... مثلهما؟



لولا أن محمداً هو خاتم الأنبياء، لصار لكل عصابة نبيّ، ولكل صحابي ميليشيا!



أَعجبنا حزيران في ذكراه الأربعين: إن لم نجدْ من يهزمنا ثانية هزمنا أَنفسنا بأيدينا ... لئلا ننسى!



مهما نظرتَ في عينيَّ، فلن تجد نظرتي هناك. خطفتها فضيحة!



قلبي ليس لي ... ولا لأحد. لقد استقلَّ عني دون أن يصبح حجراً.



هل يعرف مَنْ يهتف على جثة ضحيته ـ أخيه: «الله أكبر» أنه كافر إذ يرى الله على صورته هو: أَصغرَ من كائن بشريّ سويٍّ التكوين.



أَخفى السجينُ، الطامحُ إلى وراثة السجن، ابتسامة النصر عن الكاميرا. لكنه لم يفلح في كبح السعادة السائلة من عينيه. ربما لأنَّ النص المتعجِّل كان أقوى من المُمَثِّل.



ما حاجتنا للنرجس ... ما دمنا فلسطينيين؟



وما دمنا لا نعرف الفرق بين الجامع والجامعة، لأنهما من جذور لغوي واحد، فما حاجتنا

للدولة ... ما دامت هي والأيام إلى مصير واحد؟



لافتة كبيرة على باب نادٍ ليليّ: نرحِّب بالفلسطينيين العائدين من المعركة. الدخول مجاناً. وخمرتنا لا تُسْكر!



لا أستطيع الدفاع عن حقي في العمل، ماسحَ أحذيةٍ على الأرصفة، لأنَّ من حقّ زبائني أن يعتبروني لصَّ أحذية ــ هكذا قال لي أستاذ جامعيّ!



«أنا والغريب على ابن عمِّي. وأنا وابنْ عمي على أخي. وأنا وشيخي عليَّ». هذا هو الدرس الأول في التربية الوطنية الجديدة، في أقبية الظلام.



مَنْ يدخُلُ الجنة أولاً؟ مَنْ مات برصاص العدو، أم من مات برصاص الأخ؟ بعض الفقهاء يقول: «رُبَّ عَدُوّ لَكَ ولدته أمُّك»!



حار الفقهاء أمام النائمين في قبور متجاورة: هل هم شهداء حرية؟ أم ضحايا متناحرة في عبث المسرحية؟ حار الفقهاء واتفقوا على أمر واحد هو: أن الله أعلم.



القاتل قتيل أيضاً!



سألني: هل يدافع حارس جائع عن دارٍ سافَر صاحبها، لقضاء إجازته الصيفية في الريڤييرا الفرنسية أو الإيطالية ... لا فرق. قلت: لا يدافع!



وسألني: هل أنا + أنا = اثنين
قلت: أنت وأنت أَقلُّ من واحد.



لا أَخجل من هويتي، فهي ما زالت قيد التأليف، لكني أخجل من بعض ما ورد في مقدمة ابن خلدون!



أنت، منذ الآن، غيرك!

# أَنت، منذ الآن، أَنت

الكرملُ في مكانه السيِّد ... ينظر من علٍ إلى البحر. والبحر يتنهَّد، موجةً موجةً، كامرأةٍ عاشقةٍ تغسل قَدَمَيْ حبيبها المتكبِّر!



كأني لم أَذهب بعيداً. كأني عُدْتُ من زيارة قصيرة لوداع صديقٍ مسافر، لأجد نفسي جالسة في انتظاري على مقعد حجري تحت شجرة تُفَّاح.



كل ما كان منفى يعتذر، نيابةً عني، لكُلّ ما لم يكن منفى!



ألآن، الآن ... وراء كواليس المسرح، يأتي المخاض إلى عذراء في الثلاثين، وتلدني على مرأى من مهندسي الديكور، والمصوِّرين!



جرت مياه كثيرة في الوديان والأنهار. ونبتت أعشاب كثيرة على الجدران. أمَّا النسيان فقد هاجر مع الطيور المهاجرة ... شمالاً شمالاً.



ألزمن والتاريخ يتحالفان حيناً، ويتخاصمان حيناً على الحدود بينهما. الصفصافةُ العاليةُ لا تأبه ولا تكترث. فهي واقفة على قارعة الطريق.



أَمشي خفيفاً لئلَّا أكسر هشاشتي. وأَمشي ثقيلاً لئلَّا أَطير. وفي الحالين تحميني الأرض من التلاشي في ما ليس من صفاتها!



في أَعماقي موسيقى خفيَّة، أَخشى عليها من العزف المنفرد.



ارتكبتُ من الأخطاء ما يدفعني، لإصلاحها، إلى العمل الإضافيّ في مُسَوَّدة الإيمان بالمستقبل. من لم يخطىء في الماضي لا يحتاج إلى هذا الإيمان.



جبل وبحر وفضاء. أطير وأسبح، كأني طائرٌ جوّ ــ مائي. كأني شاعر!



كُلُّ نثر هنا شعر أوليّ محروم من صَنْعَة الماهر. وكُلُّ شعر، هنا، نثر في متناول المارة.



بكُلِّ ما أُوتيتُ من فرح، أُخفي دمعتي عن أوتار العود المتربِّص بحشرجتي، والمُتَلصِّص على شهوات الفتيات.



ألخاص عام. والعام خاص ... حتى إشعار آخر، بعيد عن الحاضر وعن قصد القصيدة!



حيفا! يحقّ للغرباء أن يحبُّوكِ، وأن ينافسوني على ما فيك، وأن ينسوا بلادهم في نواحيك، من فرط ما أنت حمامة تبني عُشَّها على أنف غزال!



أنا هنا. وما عدا ذلك شائعة ونميمة!



يا للزمن! طبيب العاطفيين .. كيف يُحوِّل الجرح ندبة، ويحوِّل الندبة حَبَّة سمسم. أنظر إلى الوراء، فأراني أركض تحت المطر. هنا،

وهنا، وهنا. هل كنتُ سعيداً دون أن أدري؟



هي المسافة: تمرين البصر على أعمال البصيرة، وصقلُ الحديد بناءٍ بعيد.



جمال الطبيعة يهذِّب الطبائع، ما عدا طبائع مَنْ لم يكن جزءاً منها. الكرمل سلام. والبندقية نشاز.



على غير هُدىً أمشي. لا أبحث عن شيء. لا أبحث حتى عن نفسي في كل هذا الضوء.



حيفا في الليل ... انصراف الحواس إلى أشغالها السرية، بمنأى عن أصحابها الساهرين على الشرفات.



يا للبداهة! قاهرة المعدن والبرهان!



أُداري نُقَّادي، وأُداوي جراح حُسَّادي على

حبٍّ بلادي ... بزِحافٍ خفيف، وباستعارة حمَّالةِ أَوجُه!



لم أَرَ جنرالاً لأسأله: في أيّ عامٍ قَتَلْتَنِي؟ لكني رأيتُ جنوداً يكرعونَ البيرة على الأرصفة. وينتظرون انتهاء الحرب القادمة، ليذهبوا إلى الجامعة لدراسة الشعر العربي الذي كتبه موتى لم يموتوا. وأَنا واحد منهم!



خُيِّل لي أن خُطَايَ السابقة على الكرمل هي التي تقودني إلى «حديقة الأم»، وأَن التكرار رجع الصدى في أُغنية عاطفية لم تكتمل، من فرط ما هي عطشى إلى نقصان متجدِّد!



لا ضباب. صنوبرة على الكرمل تناجي أَرزة على جبل لبنان: مساء الخير يا أُختي!



في قلبي منطقةٌ ما، غيرُ مأهولة، تُرَحِّبُ

بالصغار الباحثين عن حيِّز غير محتل، لنصب مُخَيَّم صيفيّ!



أَعْبُرُ من شارع واسع إلى جدار سجني القديم، وأقول: سلاماً يا مُعَلِّمي الأول في فقه الحرية. كُنْتَ على حق: فلم يكن الشعر بريئاً!



هل قال أحدهم: إن سيد الكلمات هو سيّد المكان؟ ليس هذا زهواً ولا لهواً. إنه أُسلوب الشاعر في الدفاع عن جدوى الكلمات، وعن ثبات المكان في لغة متحركة!



لرائحة الشجر الصيفية نكهة إيروسية. هنا تداخلتُ في العشب والزَّغَب والنَّمَش وسواه، تحت ضوء القمر!



حيفا تقول لي: أنت، منذ الآن، أنت!

# صدر للشاعر

- أوراق الزيتون
- عاشق من فلسطين
- آخر الليل
- حبيبتي تنهض من نومها
- العصافير تموت في الجليل
- أُحبك، أو لا أُحبك
- محاولة رقم ٧
- تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق
- أعراس
- مديح الظل العالي
- حصار لمدائح البحر
- هي أُغنية، هي أُغنية

- ورد أَقل
- مأساة النرجس، ملهاة الفضة
- أرى ما أريد
- أحد عشر كوكباً
- ديوان محمود درويش (جزآن)

## وعن
## «رياض الريّس للكتب والنشر»


**لماذا تركت الحصان وحيداً**

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥

الطبعة الثالثة شباط/ فبراير ٢٠٠١

**سرير الغريبة**

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠٠

**جدارية**

الطبعة الأولى حزيران/ يونيو ٢٠٠٠

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠١

**حالة حصار**

الطبعة الأولى نيسان/ أبريل ٢٠٠٢

الطبعة الثانية حزيران/ يونيو ٢٠٠٢

**لا تعتذر عما فعلت**

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

الطبعة الثانية: شباط/فبراير ٢٠٠٤

**الأعمال الجديدة**

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤

**كزهر اللوز أو أبعد**

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥

الطبعة الثانية: تُشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥

**الديوان: الأعمال الأولى (٣ أجزاء)**

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٥

**في حضرة الغياب (نص)**

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦

**ذاكرة للنسيان**

الطبعة الثامنة: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧

**يوميات الحزن العادي**

الطبعة الرابعة: حزيران/يونيو ٢٠٠٧

**حيرة العائد**

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٧

## أثـــر الفراشـــة

**محمود درويش**

الفارق بين النرجس وعبّاد الشمس هو
الفرق بين وجهتي نظر: الأول ينظر إلى
صورته في الماء، ويقول: لا أَنا إلاَّ
أنا. والثاني ينظر إلى الشمس ويقول:
ما أنا إلاَّ ما أَعبد.

وفي الليل، يضيق الفارق، ويتسع
التأويل!





رياض الريّس للكتب والنشر
RIYAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 9953-21-322-4

